كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٣٧ — جمادى الأولى ١٤٣١ هـ — السنة الثلاثون

التفكير الموضوعي في الإسلام

د. فؤاد البنا

فؤاد عبد الرحمن محمد البنا

* من مواليد اليمن.
* ماجستير في الثقافة الإسلامية (جامعة السند، باكستان).
* دكتوراه في الفكر الإسلامي السياسي (جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم).
* رئيس قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة الوطنية (اليمن).
* أستاذ الفكر الإسلامي السياسي المشارك في كلية الآداب بجامعة تعز.
* أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة تعز وجامعة العلوم والتكنولوجيا.
* حصل على عدد من الجوائز العلمية.
* له عدد من الكتب المنشورة، منها:

- إيجاز البيان في إعجاز القرآن.
- حاضر العالم الإسلامي ومعضلاته.
- العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة.
- الإسلام بين الثوابت والمتغيرات.
- تيارات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث.
- تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية.

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية- قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يعتبر اجتهاداً فكرياً وفقهياً واجتماعياً وثقافياً ومحاولة جادة وجريئة على الطريق الطويل المحفوف بالكثير من المخاطر والالتباسات، يأخذ طريقه إلى المكتبة الإسلامية المفتقرة إلى الكثير من الدراسات النقدية، التي توقفت في حياتنا، وكان انقطاعها وتوقفها السبب الرئيس في عمليات التأخر والانحطاط والاستنقاع الحضاري وتكرار الفشل في مشاريع النهضة والإصلاح، وبروز زعامات وقيادات وسياسيين على حين غفلة وتقصير من النقاد النَّصحة وحملة العلم العدول، الذين ينفون عن قيم الدين ما يلحق بها من البدع والخرافات ونوابت السوء والتدين المغشوش والغلو والتحريف والتأويل.

إن تجديد أمر الدين منوط باكتشاف مواطن الخلل، وبيان أسبابها، وكيفية علاجها، والعودة إلى الينابيع الأولى، وهذا لا يتأتى دون نقد للواقع ومراجعة لمساراته وتقويمه بقيم الكتاب والسنة.

إن مناخ الحرية هو الكفيل بإبراز الكفاءات، والحيلولة دون ظهور الطفيليات على الجسم الإسلامي، واعتماد أهل العلم والخبرة، واستبعاد أصحاب الادعاء والتطاول بغير علم ولا معرفة ولا خبرة.. وإن عملية النقد كفيلة بممارسة الردع لغير المؤهلين.

ولعل هذا الكتاب يؤكد الأهمية الخاصة لممارسة النقد ووسائله ومشروعيته في الكتاب والسنة والسيرة وحياة الأصحاب وكل فترات التألق والإنجاز الحضاري، ويستدعيها إلى ساحة الاهتمام.

فهل يحقق هذا الكتاب المأمولَ، ويحرك رواكد الأمة، ويستفز الإمكانات المخبوءة لتقوم بدورها في ممارسة النقد لتحُول دون هذا الغثاء الكثير، وتطمئن الأمة إلى شرعية ومشروعية عملها، وتتأكد أن النقد كان ولا يزال تكليفاً شرعياً وسبباً في خيرية الأمة ومعاودة إخراجها لتكون شاهدة على الناس من جديد؟

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

التفكير الموضوعي
في الإسلام

د. فؤاد البنا

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣١هـ

نيسان (إبريل) – أيار (مايو) ٢٠١٠م

فؤاد البنا

التفكير الموضوعي في الإسلام.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٠م.

٢١٦ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٣٧)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٨٩ لسنة ٢٠١٠

الرقم الدولي (ردمك): ٦ - ١ - ٧٧٦ - ٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولـــة قطـــر

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشـــر في هذه الســـلســـلة يعبر عن رأي مؤلفـــيها

القطرية للطباعة

تليفون : ٥٨٠٥٢٦٢ - ٤٥٠٠٠٢٨ +٩٧٤ فاكس : ٤٥٠٠٠٢٩ +٩٧٤

ص.ب: ٣٥٠٤ الدوحة - قطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(آل عمران: ١٥٢-١٥٣)

إدارة
البحوث والدراسات الإسلامية

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

- إعادة تشكيل العقل المسلم في ضوء معرفة الوحي
- إحياء مفهوم فروض الكفاية وأهمية التخصص

ثلث قرن من العطاء..

قطر - الدوحة - ص.ب: ٨٩٣ - هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ (٩٧٤) - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل القرآن، الوحي الإلهي الخاتم، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، وبذلك تقرر أن من مقاصد القرآن الكريم وأهدافه الرئيسة وخصائصه توفير المعيارية، ومنح المعيار الذي يمكّن من اكتشاف الخلل وبيان القصور والانحراف والتحريف وتحديد مواطن التقصير، وأتى لذلك بالأدلة والشواهد من تاريخ الحضارة الإنسانية ومسيرة النبوة، فكان القصص القرآني منجم العبر؛ وكان إلى جانب القصص المثلُ، وكان البيان المباشر، واستخدم القرآن لذلك كل الأساليب وفنون القول، ليوقف الأمة المسلمة، أمة الوحي الخاتم، على قمة التجربة الإنسانية، ويسلّحها بالرؤية السليمة للأشياء، التي تمكّنها من تحديد مواطن الخلل في ذاتها وعند (الآخر) وضرورة التنبه إليه، خشية أن تنتقل إليها إصابات وعلل الأمم السابقة، التي كانت سبب سقوطها وانهيارها.

ولعلنا نقول هنا: إن خصيصة الهيمنة، ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ التي تميز وتفرد بها كتاب الأمة المسلمة تعني -فيما تعني- المعيارية، والرقابة، والشهادة على التاريخ الإنساني ورؤاه الدينية، وما لحقها من عبث نتيجة التحريف والتبديل والمغالاة؛ فالقرآن بذلك يعتبر -من بعض الوجوه- كتاب النقد والتصويب الأول للعقائد والسلوك الإنساني المنحرف، وبيان طريق الصواب وسبيل الصراط المستقيم، ومواطن النكوص عن هذا الصراط، وليس ذلك فقط، وإنما ربّى الأمة المسلمة على أهمية رعاية القيم وحراستها والاضطلاع بمهمة النقد لانحرافات (الذات) و(الآخر)، وناط خيريتها وامتدادها واستمرار عطائها بمدى التزامها بعملية النقد والتصويب، فقال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ذلك أن خيرية هذه الأمة كانت ولا تزال منوطة بممارستها مهمة النقد والتصويب وفق المعايير والقيم التي يوفرها لها الإيمان بالله ووحيه المنزل ﴿ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾.

فالتصويب والنقد والمراجعة والتقويم من لوازم الإيمان والتحقق بالخيرية؛ فالأمة المؤمنة بالله وما أنزل من كتاب هي أمة الحق ﴿ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٩)... هي أمة ترسيخ العدل وإشاعته ونشره وتحقيقه في حياتها وفي عالم الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

فإبلاغها قيم الحق للناس والشهادة عليهم، وإغـــرائهم بفعـــل الخـــير، وتحـــذيرهم مـــن عمـــل الـــشر ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يعتبر من المهمات الصعبة، والمسؤوليات الكبيرة، والرســالة الإنسانية العظيمة، التي تتطلب من الأمة التي تــضطلع بــذلك مــؤهلات وخصائص ومعارف وخبرات تمكنها من أداء مسؤوليتها؛ وهذه الوظيفـــة، هذا التكليف العام للأمة يعتبر من أعلى أنواع النقد والمناصحة والتــصويب والإصلاح، وإن شئت فقل: إنه يوفر المناخ التربوي الكبير الذي يتشكل فيه العقل اليقظ الواعي الناقد، الذي يستشعر المسؤولية عـــن مـــسيرة الحيـــاة والأحياء وهدايتها وحملها على الطريق الصحيح بالحكمة والموعظة الحسنة.

فموضوع النقد، الذي يتمحور حول بيان جوانب الـــصواب لتنميتـــه والتزامه وجوانب الانحراف والخطأ وبيان سبيل معالجته وتـــصويبه والـــذي يكاد يتبلور في حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس قائمـــاً علـــى الإرهاب والإرعاب والتخويف والتنفير، وإنما على البيان والمنطق والحـــوار والحكمة، فمن كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف، وإلا فإن الخطأ في ممارســـة النقد والتصويب سوف يكون ســـبباً في أن ينقلـــب إلى ضـــده، فيكرس الانحراف، ويورث العناد، ويصنع الاستكبار، وينمي الكِبْر، الـــذي يحول دون فعل الخير.

والصلاة والسلام على النبي الخاتم، الذي تفرد بالعصمة عن الخطأ عـــن سائر البشر، فهو مسدَّد بالوحي، مؤيد به، حتى في اجتهاده فيما وراء الوحي،

فإذا أصاب أقره الوحي، وإذا أخطأ صوّب له الوحي وبيّن له ما أخطأ فيه، وعلى ذلك فكل ما وردنا عنه بطريقة صحيحة صحيحٌ مبرأ من الخطأ.

ولعلنا نقول هنا: إن تصويب الوحي لأخطاء الأنبياء، على أهميتهم ومكانتهم في الأمة وجلالة قدرهم في اجتهادهم واختيارهم، هو نوع من أرفع أنواع النقد لأعظم مستويات البشر، فلا أحد فوق احتمالية الخطأ ومن ثم النقد والتصويب.

كما أنه بالإمكان القول: إن محور رسالة النبوة وسيرة الأنبياء وتعاليمهم كان ممارسة نقد العقائد، والمبادئ، والأفكار، والأقوال، والأفعال لأقوامهم، وبيان سبل السلام، وأَطْرِهم على الحق أطراً، فكانوا القدوة والدليل إلى هداية الأمة إلى الصراط المستقيم، والوصول بها إلى سبيل الرشاد، وتقويم سلوكها بقيم الوحي.. والتقويم في حقيقته هو تصويب للخطأ ليصبح العمل ذا قيمة، ومعالجة للاعوجاج والانحراف وجعل المسار مستقيماً بعد عوج، وذا قيمة وقدر بعد أن كان بسبب اعوجاجه لا قيمة له عند الله وعند الناس.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» السابع والثلاثون بعد المائة: «**التفكير الموضوعي في الإسلام**» للدكتور فؤاد عبد الرحمن البنا، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في محاولة منها لمعاودة إخراج الأمة، وإحياء مواتها، واسترداد رسالتها في الاضطلاع بمهمة النقد والتقويم والمراجعة وكشف الخلل الذي

لحق بها، وإعادة بناء خيريتها من خلال إشعارها بمسؤوليتها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق معايير الوحي وتعاليمه، وإعادة تأهيلها بقيم الوحي لتتوفر على الخصائص والصفات المطلوبة لإقامة الكتاب والميزان، والتأهل بالعدل للشهادة على مسيرة الإنسانية وممارسة الشهود الحضاري، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

فالشهادة على الناس، والقيادة لهم إلى الخير، وإلحاق الرحمة بهم، وتحقيق العدل في بناء (الذات) وتقويم اعوجاجها، ونقد مجافاتها للحق، ومن ثم حمل رسالة الحق والعدل، التي جاء بها الوحي للناس، وتقويم سلوكهم بها وبيان مواطن الخلل والانحراف والفساد، التي يمكن أن تعتريها تتطلب مؤهلات كبيرة، كما أسلفنا.

إن حمل قيم العدل للناس، وتقويم سلوكهم بها، ونقد الواقع الفكري والفعلي الذي هم عليه كان ولا يزال محور رسالة النبوة الكبرى، ومهمة وراثة النبوة على مدار التاريخ، وكانت قولة الأنبياء جميعاً ووسيلة الأنبياء جميعاً في الإصلاح والتغيير، التي دفع المؤمنون في سبيل تأسيسها ونشرها بها ثمناً غالياً لما لحق بهم من تكذيب وتعذيب وأذى وطغيان.

لذلك قد يكون من الخصائص والصفات الأساس المطلوبة للتأهل للشهادة على الناس أن نقوِّم سلوكنا أولاً وقبل كل شيء بقيم الوحي، ونصوِّب شهادة الرسول ﷺ علينا ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:٧٨)؛ وهذا التصويب والتقويم بقيم الوحي يتطلب ديمومة المناصحة والمفاكرة والمشاورة والنقد والمراجعة والاجتهاد والتجديد والمراقبة والمعايرة ونفي نوابت السوء، ومحاولة الارتقاء دائماً إلى الدرجات العلى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (الشمس:٩)، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى:١٤)، والترقب الدائم والحذر من التراجع والسقوط إلى الدركات السفلى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:١٠)؛ لأن احتمال الزلل وتسويل النفس مرافق دائماً للإنسان؛ والتحذير من الكبر والظلم والطغيان وتكذيب الرسل؛ ذلك أن الظلم والطغيان وغياب العدل يؤدي بطبيعته إلى الكذب والتزييف وانبعاث الأشقياء في الأمة، الذين يعبثون بأمنها ومقدراتها، وهذا كان ولا يزال إيذاناً لها بالخيبة والسقوط والهلاك: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ (الشمس:١٠-١٢).

وقد لا يكون مستغرباً أن تُختزل رسالة الإسلام بقول الرسول ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» (أخرجه البخاري)، فهي من جوامع الكلم وجماع الأمر كله، وأن تكون المناصحة من التكاليف الكبيرة والمسؤوليات العظيمة: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**» (أخرجه الترمذي)، وأن يكون أَحَبَّ الْجِهَادِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «**كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ لِإِمَامٍ جَائِرٍ**» (أخرجه الإمام أحمد).

فإن من كان لديه الاستعداد لأن يضحي بنفسه لإيقاظ أمة من سباتها، وذلك بالوقوف أمام الإمام الظالم يأمره وينهيه ومن ثم يدفع ثمناً لذلك حياته في الدنيا الفانية، لكنه في الآخرة الباقية يحوز الدرجات العلى، يأتي في المرتبة بعد سيد الشهداء: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ، ثُمَّ رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ عَلَى ذَلِكَ**».

ولا شك أن عملية النقد والمناصحة تتعاظم بتعاظم الظلم والانحراف وغياب العدل لتصل في المقاربة إلى مستوى منزلة سيد الشهداء حمزة، عم الرسول ﷺ.

فرسالة الدين المناصحة والنقد وكشف الخلل، الأمر الذي لا بد أن يبدأ من العدل مع (الذات) فيؤهلها، و«**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» (أخرجه الترمذي)، «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**»، وينتهي بحمل المناصحة والعدل لـ(الآخر) ونقد الخلل في حياته وعقيدته وفكره وفعله بالحكمة والموعظة الحسنة: «**من أمر بالمعروف فليكن أمره بالمعروف، ومن نهى عن المنكر فليكن نهيه بلا منكر**».

إن النقد والتقويم لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ النبوة، فلقد بدأ مع الخطوات الأولى للنبوة وللإنسان، وذلك عند خروج آدم، عليه السلام، وزوجه عن الوصية الإلهية عندما نسي: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه:١١٥)، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ (الأعراف:١٩-٢٠)، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ (طـــــه:١٢١)، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:٣٧)، لقد اكتشف آدم خطأه عندما بدت له ســـوأته فعاد إلى جادة الصواب؛ ذلك أن الرجوع إلى الحق، والعدول عن الظلـــم، والعودة عن الخطايا سوف يبقى متاحاً للإنسان، ومغرياً له بالتخلص مـــن خطاياه، ومن هنا تتأكد فائدة النقد والتقويم والمراجعة والمناصحة، وعظـــيم الثمرات التي تترتب عـــليها في الدنيا في الإصلاح والـــصلاح وفي الآخـــرة بالفوز والفلاح...إلخ.

ولا نكاد نقرأ آية في القرآن تقريباً في التبشير والإغراء بعمـــل الخـــير والتبصير والتحذير من الانحراف والوقوع في المعاصي إلا ويمكن تصنيفها في خانة النقد والمراجعة للخطأ وبيان طريق الصواب، كما أننا لا نكاد نقـــرأ قصة نبي في تاريخ النبوة الطويل إلا ونبصر أن رسالة النبي ودوره في الحيـــاة إنما كان مناصحة قومه ونقد ما هم فيه من الخطـــايا والـــسفاهات وبيـــان طريق الصواب.

فالقرآن، الذي جاء مصدقاً لما بين يديه (النبوة السابقة) ومهيمناً عليـــه (ناقداً وكاشفاً لمواطن التحريف والتبديل ومبيناً لسبيل الصواب)، بما قدم من معايير وقيم ثابتة، غير متأتية من الإنسان، وما قـــدم مـــن نقـــد لأحـــوال

والانحرافات في ضوء تلك القيم والمعايير، وما قصّ من مسيرة النبوة وعبر التاريخ وبيّن من قوانين السقوط والنهوض الحضاري يمكن اعتباره، إلى حد بعيد، دليل العمل النقدي والفكر النقدي، على مستوى التنظير والممارسة معاً، إلى درجة تمكننا من القول: لا نهوض ولا عدل ولا تنمية ولا حراك فكري ولا استقامة بدون تربية التفكير النقدي وبناء العقل الناقد؛ ذلك أن غياب أو تغييب النقد والمناصحة وإلغاء الاجتهاد والتستر على الخطأ هو الفخ الكبير، الذي وقعت به الأمة وكان وراء تخلفها.

وسوف لن تُخرَج الأمة من جديد، ولا تتحقق لها الشهادة على (الذات) والناس ومن ثمّ يتحقق لها الشهود الحضاري إلا إذا كان النقد محور نشاطها الذهني، الذي بموجبه تتجسد في حياتها المعيارية، وتتميز بالوسطية، وتتحول بعقلها وفكرها وفعلها لأن تكون أمة معيارية، كما أراد لها ربها: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:٧٨)، فكتابها معياري ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، ورسولها معياري ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾، وهي بالتزامها وسلوكها وانضباطها بقيم الوحي معيارية، ورسالتها للناس معيارية أيضاً ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾؛ وهذه المعيارية خالدة ومستمرة ومن لوازم الرسالة المعيار الخاتمة الخالدة، تضيق وتتسع لكنها لا تنقطع، لتدلل في كل عصر ومصر أن هذه القيم واقعية وليست خيالية، قادرة على أن تتجسد في حياة الناس، وتشكل دليلاً للتطبيق وإثارة الاقتداء: «**لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي**

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» (أخرجه البخاري).

بل لعلنا نقول: إن توقف الوحي، الذي يعني - فيما يعني- توقف التصويب من السماء لمسيرة البشر وكشف الانحرافات والخطايا والإصابات الدينية والاجتماعية والحضارية يشير بشكل واضح إلى أن النقد والمراجعة والتصويب والمناصحة أصبحت منوطة بالعقل، في ضوء مرجعية ومعايير قيم الوحي.

إن اجتهاد العقل الناقد هو الذي يكشف الانحرافات والسفاهات والفساد، ويبين طريق الصواب، وما حديث الرسول ﷺ فيما أخبر بأن **«اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»** (أخرجه أبو داود) أو «**أمر دينها**»، الذي هو إخبار الصادق المصدوق من وجه، إلا أنه من وجه آخر تكليف بالنقد والمراجعة لحالات التدين المغشوش، وما يمكن أن يلحق بإيمانها من علل وإصابات، واختلاط التقاليد بالتعاليم، ونمو نوابت السوء؛ فالنقد والمراجعة من وسائل حفظ هذا الدين واستمراره وخلوده، وأن توقفه يحمل الكثير من المخاطر والعلل، التي تتنافى أصلاً مع خلود هذا الدين وخاتميته وهيمنته، التي تقتضي -فيما تقتضي- استمرار الحراسة والبيان بالنقد والمراجعة.

وليس أقل من ذلك دلالة إخبار الرسول الصادق ﷺ، الذي يحمل إلى جانب الإخبار تكليفاً شرعياً، بقوله: «**يحملُ هذا العلم من كل خلفٍ**

عدُوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين» (أخرجه البيهقي)، فهؤلاء العلماء العدول هم (النقّاد) الذين ينفون عن الدين الانحراف والتحريف الباطل، والتأويل الجاهل، والانتحال الغالي.. وهل كَشْف ذلك الزيف، وردّه، وحراسة قيم الدين كما نزلت، إلا لون من أرقى ألوان النقد والتقويم والمراجعة وحماية الحقيقة ونشر قيم الحق والعدل؟

لذلك قد يعجب الإنسان كيف انطفأت جذوة النقد في هذه الأمة، بعد أن كانت تمثل الروح السارية والممتدة؟! كيف تعطلت أدوات النقد والمناصحة حتى كاد يكون النقد من المحرمات؟!

ومن الأمور العجيبة حقاً أن النقد (الجرح والتعديل وبيان علل الأحاديث)، التي تشكل المصدر الثاني للتشريع، هو أحد العلوم والركائز الأساس في تراثنا وتاريخنا الثقافي والعلمي يسمى «علم مصطلح الحديث»، ومع ذلك فالأمر اليوم يغيب عن حياتنا العلمية والفكرية والثقافية بالأقدار المطلوبة؛ لقد كان النقد في تراثنا علماً له أدواته وآدابه ومقاصده ومصطلحاته ومتخصصوه، وكان من ثمار ذلك العظيمة حفظ حديث رسول الله ﷺ والبيان النبوي لقيم القرآن من كل دخيل، والترصد الكامل للوضّاعين والكذّابين وغير المؤهلين، وفَطْمهم عن التقول بما لا يعلمون، وكان هذا النقد مؤشراً أيضاً على حفظ القرآن ومعانيه وذلك بحفظ البيان النبوي ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٧-١٩).

والأمر الذي لا بد من بيانه هنا أن نقد التراث (فهوم البشر واجتهاداتهم) وما أنتج السابقون وغربلته، في ضوء قيم الوحي في الكتاب والسنة، على أهميته وضرورته، حتى لا تتسرب علل وأخطاء الماضي، وتؤخذ على أنها مسلمات مع أنها في حقيقتها فهم وفعل بشري يجري عليه الخطأ والصواب، وحتى تتحقق العبرة لبناء الحاضر وصناعة المستقبل، فهو من وجه آخر نزع للقدسية عن فهوم واجتهادات البشر والتباس الذات بالقيمة، ومساهمة في بناء العقل الناقد، وتحقيق الحراك الفكري، إلا أنه من بعض الوجوه أيضاً يعتبر إقامة للمعارك الفكرية في الزمن الماضي، وغياب الخصم القادر على الدفاع عن وجهة نظره وإبانة دليله والرد على ما يوجه إليه.

وتبقى هذه معارك تجري حول فكر الزمن الغائب، وتعاني من خلل الزمان والمكان والتكافؤ في الفرص، وقد تكون في كثير من الأحيان -وهنا تكمن الخطورة- على حساب إشكالات الحاضر وضرورة رؤيتها من جميع الزوايا، وإصلاح الخلل الواقع والمتوقع فيها، وتصويب مسيرة الأمة، بل لعنا نقول: إن نقد تلك الاجتهادات، الماضي زمانها وأشخاصها، قد تكون الغاية منه والمبرر له تحقيق عبرة للحاضر أو التأهل لإصلاح الحاضر ونقده وتجنيبه عثرات الماضي.

لذلك نقول: قد يكون من الأجدى، وليس البديل، خاصة وأن العملية النقدية لا بد لها من الاتصال والتواصل والفعل والتفاعل والتفاكر، أن يرتكز النقد على الواقع الفكري والثقافي والشرعي والسياسي... إلخ، بكل

مكوناته، وبيان الخلل الذي يعاني منه، ولا يشكل السكوت عنه والانصراف إلى الماضي كلية سبباً في ضلال الأجيال، وتكريس الأخطاء، وتعطيل وظيفة العقل، خاصة عندما يثبت فشل الواقع الفكـري والسياسي في تحقيق الأهداف، حيث يصبح السؤال الكبير والبدهي: لماذا فشلنا؟ وكيف نستدرك الفشل؟ والإجابة سوف تتمحور بكل أبعادها حول بناء العقل الناقد، القادر على البصارة وإيجاد الأوعية والحلول، التي تصَوِّب المسيرة قبل تعثرها، وتبين مواطن الخطأ وطريق الصواب بعد العثار الواقع فيها.

وقد يكون حصاد فكر ما أسمي بـ«الصحوة»، التي انتهت في بعض جوانبها وأنشطتها وإعلامها ودعاتها إلى سوق ترويجية استهلاكية للكثير مما يمكن أن يكون من البضائع المغشوشة والعملة الرديئة، التي تطرد عادة العملة الجيدة من التداول، حيث دخلها - في غياب وتوقف عملية النقد والترصد- من يحسن ومن لا يحسن، فأنتجت ما أنتجت من المساوئ والسيئات تحت ذريعة العواطف الجياشة والنوايا الحسنة والنصرة للإسلام، بحيث شكل ذلك حاجزاً نفسياً حال بسبب هذه الذهنية الضبابية دون التصحيح والمراجعة بحجج وذرائع شتى أيضاً -سنأتي على ذكرها إن شاء الله- ليس أقلها ضرورة توقف النقد والمناصحة بحجة عدم تبصير الخصوم والأعداء بمواطن الضعف والإصابة حتى لا ينفذوا منها(!) دون أن ندري أن العدو أعلم بعللنا منا، وأن العلل المستوطنة هي أشبه بألغام اجتماعية موقوتة سوف تنفجر بأصحابها، وهي أخطر على الأمة من عدوها، بكل كيوده ومكره.

لذلك قد نقول: إن حالات الفشل التي منينا بها على كل المستويات تقريباً إنما كانت بسبب غياب المناصحة والنقد والعودة إلى تصنيم وتعصيم نماذج من البشر.

وقد يكون من أهم الأمور وأبعدها أثراً ألا يستصحب كثير من المفكرين والكتّاب والخطباء الكبار والصغار والدعاة تاريخهم ومواقفهم في هذا المجال(!) وكم كنا نتمنى أن نقع ولو على اعتراف بخطأ واحد أو نقد (للذات) ولو مرة واحدة، وأن نمتلك الجرأة والشجاعة الكافية على الاعتراف بالخطأ، الذي أدى إلى توريط الجماهير وحقنها بشحنات الحماس المتدفقة العالية، وصنع البطولات في الفراغ، وممارسة التحديات الكبيرة لكل الأنظمة والحكومات والدول والشرق والغرب والشمال والجنوب؛ وكم ستكون خيبات الأمل كبيرة والكوارث الفكرية مأساوية إذا حاولنا استرجاع بعض الخطب النارية في الساحات والميادين العامة، التي حرضت الناس ودفعتهم إلى المواجهات و لم تبال بإراقة الدماء في سبيل صنع الزعامات المزيفة والقيادات الفاشلة!

كل ذلك يحدث دون أي تعقل أو اعتبار أو حسن تقدير أو استشراف للمستقبل، حيث يسلمنا الفشل إلى فشل؛ هذا الحماس الطاغي والهياج المتدفق لم يترافق معه وضع أيٍّ من الخطط والأوعية الشرعية والمشروعة لحركة الجماهير، الأمر الذي حوّلها إلى ألغام اجتماعية وفكرية موقوتة -كما أسلفنا- يمكن أن تنفجر فتدمر نفسها - وقد حدث ذلك وأكثر- ومن ثمّ وهو الأخطر تتحول لتكون محل نقد واتهامٍ ممن كانوا السبب في مأساتها(!)

كم نحن بحاجة إلى توبة الفكر والفعل وممارسة المراجعـــة لأخطائنـــا وماضينا، والاعتراف الشجاع بخطايانا؛ كم نحن بحاجة إلى توبـــة الفكـــر والعقل التي قد تكون أشد من حاجتنا إلى توبة السلوك والعمل؛ لأنها تتعدانا إلى الآخرين، لكن المشكلة في الكِبْر الذي في الصدور ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ (غافر:٥٦)، الذي يحول بـــين الإنـــسان واعترافه بالحقيقة وتغيير رأيه، تحت شعار يرفعونه ولا يطبقونه: «الرجـــوع للحق خير من التمادي في الباطل»، ذلك أن الحمـــقى هم الوحيدون الذين لا يغيرون آراءهم، يقول تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة:١٤-١٥).

لذلك تعطلت عمليات النقد والمراجعة، وحوصر أصحابها، وفصلوا من المؤسسات والتنظيمات والجماعات العاملة للإسلام وكيلت لهم التهم، الأمر الذي ألحق بالعمل الإسلامي الكثير من العلل المستوطنة والقاتلة.

ونستطيع أن نقول: إن الكثير من هذا الفكر، الذي جاء مـــن بعـــض زعماء الجماعات ومؤسســـات «الصحـــوة»، الذين لا فقه لهم ولا درايـــة ولا علم، أدى إلى صناعة المشكلات والحفر في طريق العمل الإسلامي بدل أن يقدم الحلول، لذلك نعتقد أن ملف ما أُسمي بـــ«الصحوة»، الذي أصبح يمثل تركة، يحتاج إلى الكثير من الغربلة والنقد والمراجعة والترحيـــل علـــى مختلف المستويات.

هذا عدا عن الأشخاص، الذين قفزوا إلى المنابر بسهولة وبدون أهلية ومن تخصصات لا تؤهلهم لذلك من الناحية الشرعية والفكرية والاجتماعية، تركوا مواقعهم التي تخصصوا فيها ثغوراً مفتوحة، ونصّبوا أنفسهم كُتاباً ومفكرين ومؤرخين وفقهاء ودعاة، يُمارسون الشحن من هناك والتفريق هنا، دون دراية وفقه للنص وللواقع معاً؛ وتستمر الأمة في حالة استنقاع فكري وحضاري رغم الهوجات وأصوات الطبول الكبيرة، حصل ذلك كله ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً؛ وما حصل ذلك إلا بسبب أن أصحابه بمأمنٍ من النقد والمراجعة على الأصعدة المتعددة، وبسبب غياب حرية النقد؛ لأن الحرية والنقد هما الكفيلان بإبراز الكفاءات وبيان الأخطاء والحيلولة دون الادعاء والتطاول، الذي ما يزال يُمارس علينا باسم الدين والنصرة لأهله.

ولعل من أهم أسباب غياب النقد والتفكير الموضوعي:

الاستبداد بشكل عام؛ ولا نقصد هنا الاستبداد السياسي والإداري فقط، وإن كان هو محور الاستبداد، وإنما الاستبداد الذي نقصده هو كل أشكال الاستبداد الحزبي والأسري والطائفي والعرقي والعنصري... إلخ، ذلك أن النقد، الذي هو أساس الحراك الفكري، لا يُؤسس ولا ينمو إلا في مناخ الحرية، ولا يتشكل ويخرج إلاّ من رحمها.

فالاستبداد أيًا كان لونه يشل العقل، ويخرس اللسان، ويقدم أهل الولاء والثقة على أهل المعرفة والخبرة، ويحول الناس إلى نسخ مكررة عن الزعيم، أو الرئيس، أو شيخ القبيلة أو الطريقة، فتتعطل سنن المدافعة ووسائل التكوين

للشخصية السوية والاكتشاف للخبرات، فتتحوّل الأمة إلى مجموعة أفراد تمشي في القطيع، بدون تفكير، أو مجموعة أجساد بلا رؤوس، تفكر كلها برأس الزعيم، «لا تعترض فتنطرد»؛ ففي مناخ الاستبداد لا تُولد إلا الأقزام، الذين يصبحون أرقاماً في خانة الزعيم، والأقزام لا يولّدون إلا زعامة قزمة.

وبغياب النقد وتعطيل أدواته وآلياته تصبح مقولة: «الناس على دين ملوكهم» صحيحة؛ وليس أقل منها صحة: «**كما تكونوا يُولّى عليكم**»، أو «**عمالكم أعمالكم**»، وهكذا تتشكل الدائرة المفرغة وتتحكم عبودية المصالح، العبودية المتبادلة؛ ولا سبيل لكسر هذه الحلقة المحكمة الإغلاق إلا بعمليات النقد والمراجعة واسترداد مناخ الحرية، على مختلف الأصعدة.

وليس **الإرهاب والإرعاب الديني**، أقل خطراً على الدين والعقل والتفكير من الاستبداد السياسي، فإذا كان الاستبداد السياسي يحكم ظاهر الناس وسلوكهم، ويساهم بصنع الشخصية المزدوجة المزيفة المزورة المغشوشة، التي تعتقد شيئاً وتظهر آخر، فإن الإرهاب الديني يتحكم ببواطن الناس، ويتسلط على ضمائرهم، ويجرّم مسالكهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (البقرة:٧٩).

وتبقى الصورة الأخطر عندما يتحالف الاستبداد السياسي مع الإرهاب الديني، عندما يتحول الدين إلى كهانات، ويلتقي الجبت والطاغوت، فالسياسي يحتاج إلى غطاء ومسوغ ديني أمام جماهير الأمة المتدينة، والديني

يحتاج إلى سلطة حماية سياسية، وهكذا تدور الرحى على معاني الحرية والتفكير والتأمل والنقد فتسحقها، وتجرِّم أصحابها، وتطردهم من رحمة الله، وتتهمهم بشتى التهم، وتنعتهم بأبشع النعوت، ويصبح النقد من الأمور المحرمة.

ولعل من الأسباب الكبيرة لغياب النقد وأخطرها أيضاً، وخاصة في مجال التدين المغشوش، حيث يشكل الدين المهرب الطبيعي والغريزي والعقلي من الاستبداد السياسي: **الخلط بين نصوص الوحي المعصومة وفهوم البشر المظنونة**، التي يجري عليها الخطأ والصواب، أو عندما تلتبس الذات بالقيمة، فتنتقل العصمة من النص المنزل من الخالق إلى الإنتاج الفكري للشخص المخلوق، وبذلك يُلغى النقد والمراجعة، حيث يصبح الحديث عن خطأ الشخص أو انحرافه أو مغالاته اتهاماً للدين والشريعة؛ فالذي يتكلم عن الشخص ويخطِّئه يتكلم عن الشريعة ويخطئها؛ والذي يتكلم عن الشريعة يتكلم عن مبلِّغها الرسول ﷺ؛ والذي يتكلم عن الرسول، مبلِّغ الشريعة، يتكلم عن الله منزلها، وهكذا تمر هذه السلسلة من الفهوم المغلوطة والملتبسة بمتوالية محكمة الحلقات، وتتشكل في هذا المناخ الرديء طبقة أكليروس تحمل علل رجال الدين في الأمم السابقة، الذين ادعوا بأنهم يحتكرون الحقيقة ويتحدثون باسم الله ويحملون الكتاب المقدس ويفهمونه دون غيرهم، حيث الكلام عن الشخص ونقد الخطأ في اجتهاده هو كلام على الله وجحود له وكفر به(!) وكأن الأشخاص الذين يحملون شارات وشعارات الدين أصبحوا فوق مقام النبي المعصوم، الذي عوتب

أكثر من مرة، وقال الله له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ (التوبة:٤٣)، وقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (الأنفال:٦٧)، وقال له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ (عبس:١-٢).

وكأن الأشخاص، حملة هذا اللون من التدين، أصبحوا فوق مقام أهل أُحُد من كرام الصحابة، الذين وصف الله أحوالهم ودخائل نفوسهم وهم على أرض المعركة، وبيَّن سبب هزيمتهم بمساحة تعبيرية كبيرة تكاد تروي دقائق الأمور، وقرر أن تلك الإصابة كانت بسبب تقصيرهم، كانت من عند أنفسهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (آل عمران:١٦٥)، جاء هذا كله وهم ما يزالون على أرض المعركة، و لم يخطر بالبال أن ذلك يقوي العدو ويبصره بمواطن ضعفهم! أو أنهم باعتبارهم مسلمين وأصحاب فوق الخطأ، أو أن فعلهم معصوم لا يتطرق إليه الخطأ.

وكأن بعض المتدينين من أصحاب الكهانات اليوم يضعون أنفسهم فوق مقام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي أعلن في خطبته الأولى بعد اختياره خليفةً للمسلمين: «**إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم**»؛ وفوق مقام سيدنا عمر، رضي الله عنه، عندما قامت امرأة في المسجد تقول على

مرأى ومسمع من الناس: «أيعطينا الله ويمنعنا عمر؟!»، فما كان منه إلا أن قال: «الحمد لله الذي جعل امرأة تقوِّم اعوجاج عمر».

وقد يكون من أسباب غياب النقد وتعطيله وانسداد قنواته: **التوجه بالنقد صوب الأشخاص، وتجريحهم بدافع من الحقد والكراهية والحسد، والتركيز على صفاقم الشخصية، وليس التوجه صوب الأعمال**، وهنا مكمن خطر كبير، يفتقد النقد عنده وظيفته وأهميته، وتتعطل آليته، ويتحول من التصويب وبيان الخلل إلى المهاترات وإثارة العداوات والخصومات والأحقاد، فيوقع في الإثم وينمي الحقد والكيد الشخصي، الذي يتدخل فيه حسد النعمة والبهتان والزور، والاقتصار على النقائص والسلبيات دون ذكر آية فضيلة، ويصبح إلغاؤه والسكوت عنه مطلوباً ومشروعاً من باب سد الذرائع، لمن لا يستطيعون تجاوز الصورة إلى الحقيقة، وعندها يختلط الحابل بالنابل.

ولعل من مشكلات غياب النقد أيضاً: **الذهنية المغشوشة السائدة**، في الأوساط العامة والفكرية معاً، وهي اختزال تاريخ الإنسان الطويل وكسبه المتنوع بخطأ في موقف واحد، يسقط معه كل كسبه وجهده واجتهاده وصوابه، ذلك أن مجرد الخطأ -و«**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**» (أخرجه الترمذي)- يُسقط تاريخ الإنسان، بكل إيجابياته وعطائه، ويحوله إلى كتلة أخطاء؛ وأي صواب قد يجعل منه معصوماً منزهاً عن الخطأ، لذلك فهو إما معصوم يُحاط بسياج من الحماية من النقد حتى لا يسقط بخطأ، ويُطارد ويحاصر كل من يخطر بباله النقد والتصويب، وإما شرير خطّاء لا خير فيه ولا رجاء منه،

وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه، وعند ذلك لا يؤدي النقد وظيفته، ولا يستشعر الناس أهميته ودوره في ترشيد المسيرة، فالحكام ليسوا وحدهم المعصومين بل رجال الدين أيضاً وزعماء التنظيمات والجماعات(!)

فإذا كان الخطأ يجري على كل إنسان، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ فإن صناعة العصمة المزيفة للأشخاص في تاريخنا العقيدي والثقافي والفقهي وبروز زعامات موهومة ومزيفة وفاشلة إنما يتأتى بسبب غياب النقد والتصويب والمناصحة.

ومما لا شك فيه أن التعميم في الأحكام، الذي يعني -من بعض الوجوه- العامية أو عمى الألوان، وينتهي بصحابه إلى سلب الناس قدراتهم وأهليتهم وقابلياتهم، كأن يقال: «فلان ليس بشيء» أو «ما عنده شيء» أو «خالي الوفاض» أو «لا يفهم شيئاً» أو«...» أو«...» على الرغم من أن ذلك محظور عقلاً شرعاً؛ لأنه ينافي الحكمة من الخلق، ويصادم الفطرة وأصل العطاء الإلهي لكل ما خلق الله، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠)؛ إن عدم التنبه إلى ما أعطاه الله لكل مخلوق من قابليات ومواهب حتى أصبح محلاً للهداية، يشكل مخاطرة كبيرة ويهدر طاقات كثيرة لم توضع في مجالها، فمن لا يحسن هذا الشيء، بسبب من الخطأ في اختياره لهذا الموقع، قد يكون مبدعاً وعبقرياً في أشياء أخرى.

وعلى الرغم من أن ذلك محظور شرعاً -كما أسلفنا- ويعتبر دليل الجهل وسبيل البهتان ومؤشر ضآلة العلم، فإنه يمثل الوجه الآخر للتصنيم

والتعظيم، الذي يجعل من الإنسان المعظم والعالم العلامة الزعيم المبجل الملهم، يفهم بكل شيء دون سواه.

ومن أسباب غياب النقد أيضاً، بالأقدار المطلوبة: **شيوع الذهنية الذرائعية**، وثقافة الإلقاء بالتبعة والمسؤولية على (الآخر)، في محاولة لإعفاء (الذات) من المسؤولية.. وهذا (الآخر) قد يتمثل في عدو شرس، ومؤامرة كبيرة، وكيود خطيرة، أو ما إلى ذلك، وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، وما تورِث تلك الثقافة من قبول للفشل، والتسليم بالواقع، وتكريس العجز عن التغيير، وإلغاء مجرد التفكير بالمراجعة والنقد، وأقل ما يقال في ذلك: إن الذين يتطاولون على زعامة الأمة وقيادة الجماعات والتنظيمات والأحزاب هم دون سوية التعامل مع الظروف المتغيرة والمعطيات المتقلبة والتحديات القائمة، ذلك أن التطلع إلى الارتقاء ومحاولات التغيير أو ما يسمى بالقلق السوي هو المِهْماز الحضاري للترقي، حيث يصبح الشعار دائماً: أنه «بالإمكان أفضل مما كان».

وليس أقل من ذلك خطورة عندما يعجزنا العثور على عدو نُلقي عليه بالتبعة أن نُلقي بالتبعة على القدر، وننزل بعض الشعارات والعبارات الإسلامية على غير محلها، وننتقي عبارات نتوهم أنها تستر تقصيرنا، ونقول: «قدر الله وما شاء فعل»، ويفوتنا أن الله يشرع من الأقدار ما يشاء؛ إنه شرع الأقدار والسنن، وكلّف الإنسان الحر المختار بمغالبة تلك الأقدار ومدافعة تلك السنن؛ ومن هنا كانت مقولة ابن القيم وفهمه الدقيق، رحمه

الله: ليسَ المسلم هو الذي يستسلم للقدر وإنما المسلم الحق الذي يدفع القدر بقدر أحب إلى الله، لذلك كانت قولة الصحابة جميعهم، تقريباً، رضي الله عنهم: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»، ولم يفهم ولا حتى واحد منهم أن القدر يعني العطالة وسلب الإرادة إلا ما كان في العصور المتأخرة من بعض فهوم فترات التراجع والانحطاط.

وقد تكون من أبرز إشكاليات غياب النقد أو التفكير النقدي بشكل عام: **ادعاء العصمة لبعض من يطلق عليهم علماء أو شيوخ الطرق**، والارتفاع بهم فوق النقد، وإقامتهم كأنصاب وأزلام لا يجوز أن تُمس، والتخويف والتأثيم من مجرد الاقتراب منهم، علماً بأن الرسول ﷺ دون سواه هو المعصوم؛ لأنه مسدد بالوحي، ومؤيد به، فإذا اجتهد فأصاب أقره الوحي، وإذا اجتهد وأخطأ صوّب له الوحي وبيّن الخطأ - كما أسلفنا- فكل ما وردنا عنه بطريقة صحيحة هو صواب؛ ومن هنا يمكن لنا أن ندرك أبعاد قولة الإمام مالك، رحمه الله عنه: «كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلاّ صاحب هذا القبر ﷺ»؛ فمتى نصل بتديننا إلى مرحلة أن نأخذ ونرد، ونعرف وننكر؟ وهذا هو النقد والتفكير النقدي الذي ندعو إليه، ذلك أن العمل النقدي في محصلته النهائية يعتبر شريكاً في البناء والتنمية والترقي؛ وكم سيكون التدين محزناً ومعوقاً وسبباً في التخلف وانطفاء روح الأمة وتعطيل تفكيرها عندما ندعي العصمة لأولياء أو علماء أو صالحين أو أئمة، ليترقوا بذلك إلى ما فوق مقام النبوة، ويدعى لهم صفات الألوهية(!)

وهنـــا قد يكون من المفيد التمييز بين عصمـــة عمـــوم الأمـــة، التي لا تجتمع على خطأ أو ضلالة: «**إِنَّ أُمَّــتِي لا تَجْتَمِــعُ عَلَــى ضَــلالَةٍ**» (أخرجه ابن ماجه) أو «**خطأ**»؛ وبين خطأ الأفــراد، ابتــداءً مـــن جيـــل الصحابة، كرام الناس، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبالإمكان القول: إن تعطيل التفكير وإيقاف الاجتهاد، بحجـــة عـــدم الأهلية، أصاب الحياة الفكرية بشكل عام والـــتفكير النقـــدي وعمليـــات المراجعة والمناصحة والتصويب بشكل خاص في مقتل؛ والأمر يصبح أشـــد خطورة عندما يوصف حكام الاستبداد السياسي بأنهم يمثلون ظل الله علـــى الأرض، أو ينفذون إرادته، أو يتحدثون باسمـــه، ســـواء كان ذلك مباشرة أو من قبل سدنتهم من الكهنة ورجال الدين من فقهاء السلاطين، الـــذين يسوِّغون أعمالهم ويشرعنونها، في أسوأ وأخطر ما يصيب كرامة الإنـــسان وحريته، وذلك عندما يتحالف الجبت والطاغوت، وقد أُمر الناسُ أن يكفروا بهما، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ (النـــساء: ٦٠)، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

وهنا قضية من المفيد التوقف عندها وهي: إن المناصـــحة والمراجعـــة والنقد، التي تبصِّر بالأخطاء، وتنقب عليها، وتبحث فيها، حمايـــة للأمـــة

وتحقيقاً للحراك الفكري ومساهمة في النمو والارتقاء وسلوك سبل السلام تعتبر أحد أهم الروافع الحضارية والتنموية عندما تصبح ثقافة للأمة بكل شرائحها؛ ذلك أن نظرية الشك، ابتداءً في الفلسفة، حتى يثبت اليقين كانت السبب الرئيس في انتظام العمل، واستواء التفكر، ودقة وإتقان الإنجاز، تلك التي عبر عنها بعض أئمتنا، بمنطق شرعي وحسٍّ إيماني رفيع، بأن الأصل في الأشياء الحظر حتى تثبت الإباحة، أو أن الأصل في الأشياء نصّ الشارع، ولهذا أبعاد فكرية وفقهية كبيرة لا يتسع المجال للتوقف عندها.

نعاود القول: إن المناصحة والمراجعة والنقد، بكل عطائها، يمكن أن تكون المقابل لعملية المديح والإطراء والتصفيق للخطأ والصواب وإضفاء صفات العبقرية والتميز والإبداع والتفرد على الأشخاص والأعمال، الأمر الذي يلغي العقل، ويعمي البصر، ويعطل البصيرة، ويكرس الخطأ، ويطفئ روح الأمة السارية، والنفس مفطورة على حبّ المديح، ضائقة بالنقد؛ لذلك حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من المديح، وقال لأحد المداحين: «**وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ** مِرَارًا» (أخرجه البخاري)، ألغيت عقله، وعطلت تفكيره، وتركته يعيش الوهم؛ وقال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**» (أخرجه مسلم).

ولعل الآفة الأخطر المتولدة عن غياب النقد والتي تعطل عملية النقد والمناصحة: نُمُوّ عقدة (الأنا) أو تفخيم (الذات)، عند بعض الناس، والتي معها يصاب بمرض جنون العظمة، فيجعل نفسه فوق البشر، وفوق النقد،

لا يطيــق إلا المديــح، ويقضي عمره في الســعي إليه، ويتوهم أن عظمته لا تتحقق إلا بتحطيم الآخرين وإسقاطهم، والعلو على جثثهم.

والأمر الذي نريد له أن يكون واضحاً ابتداءً أن الإشكالية قد تكــون أيضاً في **نوعية معايير النقد ومقاييس النظر إلى الأعمال والحكم عليها**؛ في القيم التي تقوَّم بها الأمور، ويكتشف اعوجاجها، ويعاد تقويمها والعمل على استقامتها، ذلك أن الخطأ في اختيار نوعية هذه المعايير أو في دقة تطبيقهــا على واقع الناس قد ينتهي إلى كوارث ومخــاطر واخــتلالات اجتماعيــة وإنسانية ويؤدي عكس المطلوب، ويساهم بشكل سلبي بتعطيــل عمليــات النقد والمراجعة وانعدام جدواها.

ولعلنا نقول هنا: إن القيم والمعايير، التي تُعتمد في النظر للأشياء والحكم على الفعل الإنساني، ومدى عدالتها واستوائها في الرؤية الإســلامية هــي مستمدة من معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، لذلك فهي قيم ثابتة ودقيقة وموضوعية وغير منحازة بطبيعة مصدرها؛ لأنها متأتية من مصدر آخر، من خالق الإنسان، العالِم بأحواله، الشارع لسبل هدايته، لذلك فهي مــوازين مجردة ودقيقة ومعصومة عن الخطأ وبعيدة عن الهوى والخضوع للمــؤثرات الشخصية بكل أنواعها، إضافة إلى أنه لا يمكن عقلاً ولا واقعــاً أن يكــون الإنسان مصدر الاجتهاد ومحل الفعل وفي الوقت نفسه معيار الحكم علــى ذلك الفعل! أو بتعبير آخر أن يكون المعيار ومحل المعايرة، في الوقت نفسه.

ولا شك أن لهذه المعايير النقدية المتأتية من معرفة الوحي أدبها وأخلاقها وأسلوب استعمالها، فهي تقتضي أول ما تقتضي الفقه بــالأمر المطــروح،

والإحاطة بعلمه من كل جانب، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)؛ لأن الحكم على الشيء والشهادة عليه فرع عن تصوره؛ كما تقتضي توفر خصائص وصفات شخصية لمن يقوم بالعملية النقدية من مثل عفة اللسان، والبعد عن الغيبة والتشهير والنيل من القضايا الشخصية، التي يقتصر أثرها على الشخص ولا تتعداه إلى الآخرين، والتمحور حول الأعمال وليس الأشخاص، واستخدام الأساليب الحكيمة والمؤثرة، والتنويع في الوسائل والأساليب، واستخدام الطرق غير المباشرة أحياناً، على سنة النبوة في التحذير والنصح: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟!**» (أخرجه أبو داود)، «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...**» (أخرجه البخاري)، «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...**» (أخرجه البخاري)، وأهمية البدء بذكر الفضائل والإيجابيات، ومن ثم تناول السلبيات بنوع من الإشفاق على الواقع فيها، وإرادة الخير له؛ ولعلنا نؤكد أن قولة الرسول ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» تحمل هذه المعاني جميعاً، حيث هدف النقد الإصلاح ونصرة الآخر، ظالماً أو مظلوماً، وليس التشهير والجلد.

لذلك نقول: إن الشخصيات غير السوية: الحاقدة، والحاسدة، والمأزومة، والمزاجية، والمتقلبة، والفاشلة، وصاحبة البهتان والسفه والإسفاف والفجور في الخصومة والمبالغة والتطفيف والبخس، غير مؤهله، بطبيعة تكوينها، لممارسة النقد والقدرة على الصدق فيه، كما أن الاقتصار على الجوانب السلبية، وتجريد المنتقَد من كل إمكانية، يعتبر خللاً

في الممارسة النقدية، ويؤدي إلى تعطيل عملية النقد وتحويلها إلى تكريس التصلب والتعصب.

وقد يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً وبما يتسع له المجال للحديث عن مشروعية النقد في الكتاب والسنة، وإن كنا قد أتينا على ذكر ذلك في ثنايا بالحديث فيما سلف.

ولعل في مقدمة دلائل المشروعية: القرآن الكريم، حيث جاء إنزاله مصدقاً ما بين يديه، ومهيمناً عليه.. والتصديق للصواب، والتصويب للخطأ، وبيان ما وقع به أصحاب الأديان السابقة هو ممارسة للعملية النقدية بكل أبعادها؛ فالقرآن مهيمن على الكتب السماوية السابقة، ومصوِّبٌ للرؤى الدينية؛ والقرآن مهيمن على الإنتاج البشري، وحاكم عليه، ولو كان هذا الإنتاج مُستنبَطاً من القرآن نفسه؛ فهو المعيار والرقيب والشاهد.

وقد ناط القرآن بأمته الشهادة على الناس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، وهذا دليل مشروعية النقد والمراجعة والتصويب، فالشهادة بإبلاغ الصواب، وبيان مسالك الخطأ والانحراف، والتحذير من ذلك هو مراجعة ونقد؛ كما ناط القرآن بالرسول ﷺ الشهادة على أمة القرآن ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وعرض القرآن لقصص الأنبياء، وبيَّن التحريف والتبديل والغلو والتطرف، وحذر من انتقال علل أصحاب الأديان السابقة.

كما عرض لبعض إصابات وأخطاء المؤمنين، كما حصل في معركة أحد -كما أسلفنا- وغزوة حنين؛ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة:٢٥)، حتى لقد اعتبر الرسول ﷺ ممارسة النقد والمناصحة ونفي نوابت السوء هو سبيل حماية قيم الدين وممارسة التدين السليم وامتداده، فقال: «**يحملُ هذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**» (أخرجه البيهقي)، فبيان التأويل الجاهل والتحريف الباطل والانتحال والمغالاة، والتحذير منه هو النقد ذاته.

فممارسة النقد من الرسول ﷺ لبعض أعمال وممارسات أصحابه، على جلالة قدرهم وعظيم دورهم وعطائهم وهم خير القرون، دليل واضح على مشروعية النقد وأهمية ممارسته، وأنه سنة من سنن النبوة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ** (رضي الله عنه)» (أخرجه البخاري).

ولا شك عندي أن خيرية الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، كانت ولا تزال منوطة برسالتها ووظيفتها في ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي ممارسة عملية النقد والتصويب والمناصحة والمراجعة؛ وهل في النقد غير ذلك؟ كما أن اكتساب الأمة

لمفهوم ومدلول ومواصفات الوسطية والعدل هو الذي أهلّها للشهادة على الناس وتحقيق الشهود الحضاري؛ وهل الشهادة على الناس إلا ممارسة النقد والمراجعة والتصويب؟

وليس ذلك فقط، بل إن تعطيل عملية النقد والمراجعة والتواطؤ على الخطأ مؤذن بالسقوط؛ لذلك عاب الله تعالى على الأمم السابقة تواطأها على الباطل، وتوقفها عن المناصحة والمراجعة والنقد، وتسترها على الأخطاء والعيوب، يقول تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣٤)، ويقول أيضاً: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (المائدة:٧٨)، ويقول: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ (المائدة:١٣).

فهل تَعتبر الأمة أن غياب النقد والمراجعة والمناصحة وعدم اعتماد الموضوعية والدقة في ذلك من أهم أسباب سقوط الحضارات فتأخذ حذرها، فتنفر وتستنفر للمناصحة والترشيد، ثُباتٍ وجميعاً؟

وقد يكون من المفيد أن نلخص **أهم وسائل النقد والتصويب**، التي يمكن أن تحقق المقصد منه، في:

- إخلاص النية لله تعالى، وابتغاء وجهه وخير الأمة.
- ممارسة النصيحة الخاصة والعامة، **فـالدِّينُ النَّصِيحَةُ: «للَّهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ** » (أخرجه البخاري).
- اتباع الحكمة في حسن التقدير، ووضع الأمور بمواضعها، وزينها بموازينها، وضبط النسب، وعدم الشطط.
- التعريض بالعمل وبيان فساده والمخاطر التي سوف تترتب عليه.
- نقد الأعمال والبعد عن نقد الأشخاص والحط من قدرهم.
- البعد عن التشهير والتجسس والغمز واللمز.
- الاقتصاد في النقد وعدم التجاوز وفقدان الاتزان.
- اعتماد الحوار وسيلة لبيان الخلل، والتزام أدب الحوار والخلاف وأخلاق العلم والمعرفة.
- ممارسة المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن.
- امتلاك أدوات النقد والمناصحة وفقه معاييره من معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، وممارسته تأسياً بالسيرة العملية.
- الابتعاد عن حب الظهور والكبر والرياء والبهتان.
- البعد عن التجريح والإساءة وسوء الظن، والحكم على الظاهر، فالله يتولى السرائر ويعرف النوايا وما تُكنّ الصدور.
- استخدام وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة.
- عدم الاقتصار على السلبيات والبدء بالإيجابيات.

- الاعتراف بفضل (الآخر) والإيضاح أن الغاية هي نشدان الحقيقة.

- العمل على ترشيد (الآخر) وإنقاذه وليس العمل على إسقاطه وإلغائه.

- ترك النقد في حالة الغضب والانفعال والتأزم، فالنقد قضاء، من بعض الوجوه، ولا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان.

- العلم بمحل النقد وفقه الواقع إلى جانب فقه المعيار والميزان، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

هذه بعض وسائل النقد وآدابه وأخلاقه وشروطه يمكن لها أن تشكل نافذة على تلك العملية الخطيرة، التي ما تزال غائبة بالشكل المطلوب عن حياتنا السياسية والفكرية والشرعية والثقافية.

وقضية أخيرة، وهي أن الإشكالية الأساس عندنا قد تكون في مفهوم الموضوعية، أو ما يطلق عليه: «التفكير الموضوعي»، ومعايير الفحص والاختبار، فمتى يكون التفكير موضوعياً ومتى لا يكون؟ وهل التفكير منضبط بحدود الموضوع المطروح للنظر والتفكير؟ وكيف نحدد المكان الذي خرج فيه المفكر عن حدود الموضوعية والتفكير الموضوعي لرده إليها؟ وفي تقديري أن لكل خلق في هذه الدنيا قانونه، سواءً في ذلك عالم الأنفس، أو عالم الآفاق، وعلى ذلك يكون التفكير موضوعياً، فيما نرى، إذا التزم الباحث أو المفكر المنهج السنني (قانون الأشياء) في النظر، واتسق معه، وفكر ضمن سياقه، أما إذا لم يستوعب القانون ولم يُحِط به علماً فمن أين له الموضوعية في تفكيره؟ ومسألة أخرى، فما هو المعيار الذي نحكم من خلاله على موضوعية أمرٍ أو عدم موضوعيته؟

لذلك نقول: إن معرفة الوحي في الكتاب والسنة والسيرة العملية هي التي تضع الإطار المرجعي والضابط المنهجي للتفكير الموضوعي، وتحكم عليه بالموضوعية من عدمها، فإذا ما خرج العقل عن حدود الموضوع المطروح أو خرج عن وظيفته وحدوده ومجالاته إلى مواطن لا يمتلك أدواتها، فإنه يخرج عن الموضوعية؛ كذلك إذا وضع الإنسان مقدمات خاطئة واعتبرها مسلمات، هكذا بدون معيار أو ميزان، ورتب عليها نتائج، ثم اعتبرها موضوعية ومنطقية! مع العلم أن المقدمات الخاطئة تقود دائماً إلى نتائج خاطئة، الأمر الذي يسهل معه ادعاء الموضوعية، لذلك نقول: إن محور الموضوعية هو قيم وموازين معرفة الوحي، فهي التي تضع الأسس والضوابط الموجِّهة للتفكير الموضوعي، والمعايير التي يحاكم إليها، لذلك يمكن أن ينصبّ النقد والمناصحة على تصويب الخروج على الموضوعية في ضوء تلك المعرفة.

وبعد:

فهذا الكتاب يعتبر اجتهاداً فكرياً وفقهياً واجتماعياً وثقافياً ومحاولة جادة وجريئة على الطريق الطويل المحفوف بالكثير من المخاطر والتحديات والالتباسات، يأخذ طريقه على استحياء وتوجس إلى المكتبة الإسلامية الفقيرة والمفتقرة إلى الكثير من الدراسات النقدية، التي توقفت في حياتنا، وكان انقطاعها وتوقفها السبب الرئيس في عمليات التأخر والانحطاط والسقوط والاستنقاع الحضاري وتكريس الفشل وتكراره في مشاريع النهضة والإصلاح، وبروز زعامات وقيادات وكتّاب ومفكرين وخطباء ووعاظ وسياسيين على حين غفلة وتقصير من النقاد النَّصحة وحملة العلم

العدول، الذين ينفون عن قيم الدين ما يلحق بها من البدع والخرافات ونوابت السوء والتدين المغشوش والغلو والتحريف والتأويل.

إن تجديد أمر الدين منوط باكتشاف مواطن الخلل، وبيان أسبابها، وكيفية علاجها، والعودة إلى الينابيع الأولى، وهذا لا يتأتى دون نقد للواقع ومراجعة لمساراته وتقويمه بقيم الكتاب والسنة.

إن مناخ الحرية هو الكفيل بإبراز الكفاءات، والحيلولة دون ظهور الطفيليات على الجسم الإسلامي، واعتماد أهل العلم والخبرة، واستبعاد أصحاب الادعاء والتطاول بغير علم ولا معرفة ولا خبرة ولا موضوعية.. إن عملية النقد كفيلة بممارسة الردع لغير المؤهلين؛ لأن النقاد لهم بالمرصاد.

ولعل الكتاب الذي نقدمه اليوم يؤكد الأهمية الخاصة لممارسة النقد ووسائله ومشروعيته في الكتاب والسنة والسيرة وحياة الأصحاب وكل فترات التألق والإنجاز الحضاري، ويستدعيها إلى ساحة الاهتمام، كما يؤكد أن المجتهد والناقد شريكان في البناء الحضاري للأمة.

فهل يحقق هذا الكتاب المأمولَ، ويحرك رواكد الأمة، ويستفز الإمكانات المخبوءة لتقوم بدورها في ممارسة النقد لتحُول دون هذا الغثاء الكثير، الذي قد يضر ولا ينفع، حتى ولو حسنت النوايا، وتطمئن الأمة إلى شرعية ومشروعية عملها، وتتأكد أن النقد كان ولا يزال تكليفاً شرعياً وسبباً في خيرية الأمة ومعاودة إخراجها لتكون شاهدة على الناس من جديد؟

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المقدمة

لا يختلف عاقلان على أن أمة المسلمين في هذا العصر تعاني من تخلف حضاري شمل نواحي حياتها كلها، لدرجة أنه لم تنج زاوية من زوايا مجتمعات المسلمين من صورة ما من صور التخلف، مع اختلاف النسب والمقادير بالتأكيد، بين المجالات والمجتمعات.

وعندما ندرس خارطة التخلف، سنجد أن تضاريسه مليئة بكثير من الغرائب، منها ما هو مرتبط بغياب أو ضعف منظومة (الموضوعية) بجانبيها الفكري والنفسي، حيث يُلاحظ تمحور كثير من المسلمين حول الأشخاص لا حول الأفكار، وبروز التطرف في حالتي الحب والكره، وادعاء احتكار الحقيقة المطلقة مع غياب آداب الحوار، وبروز لغة الاتهام وحضور نظريات التفسير التآمري بقوة، وادعاء المعرفة بكل شيء والجرأة الشديدة في إطلاق الفتاوى في كافة مجالات الحياة، وبروز الاتهام للآخر وغياب النقد الذاتي

وضعف ثقافة المراجعة، وعدم احترام التخصصات الفردية والجماعية حيث الحرص على الانغلاق على الذات وعدم الاستفادة من خبرات المجتمعات الأخرى، والخلط بين التفاعل الحضاري والغزو الثقافي، والميل إلى التعميم في إطلاق الأحكام.

ويزداد الفقر في ثقافة (الموضوعية) أكثر في أوساط العرب، إذ أن بعض القيم والمفردات غير الموضوعية كانت ذات حضور كثيف في العقل العربي قبل الإسلام.

إلا أن الإسلام ولما يمتلكه من قوة ذاتية بصورة عامة، مع حضور باهر في مجال قيم الموضوعية فكراً وخلقاً، فقد تخلقت الأجيال الأولى بأخلاق الموضوعية، وعُرفت بالانحياز إلى القيم المعلية للعقل والتخصص العلمي والاعتدال في عواطف الحب والكره، وعدم ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، مع احترام (الآخر) ومحاورته بالتي هي أحسن، وتغليب مفردات النقد الذاتي والتواضع وامتلاك شجاعة الاعتراف بالجهل، وإعلاء شأن التخصصات العلمية، والانطلاق في المواقف والأحكام من قاعدة النسبية بعيداً عن التعميم.

وعندما خَفَّ تأثير الإسلام خَفَتَ تأثير هذه القيم لدرجة كادت أن تجعل غياب الموضوعية أحد مكونات الشخصية المعاصرة، وخاصة ما يرتبط ببروز العواطف والانفعالات على حساب العقول والفاعليات، وطغيان

الشخصانية على حساب الأفكار، وتقدم قيم التعالم والإطلاق والانغلاق واقام الآخر، على حساب قيم التواضع العلمي ونقد الذات والنسبية والانفتاح على الآخرين والاعتراف بإيجابياقم والاستفادة منها.

ولما كانت أمة المسلمين بحاجة إلى جهود الجميع في محاولة تقطيع جواذب التخلف وتجفيف منابعه، من أجل مساعدتها على معاودة الإقلاع الحضاري، وبما أن المعترك الفكري هو المبتدأ، فقد حاولت المساهمة بجهد المقلّ في هذا الموضوع الخطير.

وما دمنا قد أشرنا إلى شيء من خصائص العقل العربي قبل الإسلام في هذه المقدمة، فإننا نذكر بما توصل إليه كثير من علماء المسلمين بل وبعض علماء الغرب حول أن العربي لا يمكن أن يسير في مدارج التقدم ويمتطي معارج النهوض الحضاري ما لم يكن الدين محركه الرئيس.

ولهذا قمتُ بجمع الأسس التي أرى أنها تمثل روافع ودوافع المنظومة الموضوعية، وتأصيلها من خلال الشرع الإسلامي، بالعودة الكثيفة إلى آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، مع الإشارة إلى بعض تطبيقات وأقوال سلف الأمة الكبار، ومن ينتمي إلى مدارسهم في هذا الزمان.

أكثرتُ من إيراد الشواهد الإسلامية حتى تكتسب هذه القضية مشروعيتها الدينية في أذهان كثير من المسلمين الذين خرجت مثل هذه

القضية عن دائرة العبودية لله في فكر وفعل أكثرهم، لكن طبيعة هذه السلسلة من الكتب حتمت عليّ الاختصار في الشرح قدر الإمكان، مع الركون إلى نباهة القراء، لعلمي أن هذه السلسلة تستقطب في العادة أفضل عقول الأمة، أو هكذا نحسبهم.

نسأل الله تعالى أن نكون قد قدمنا شيئاً ذا بال يساهم ولو بشق تمرة في توفير الزاد الفكري لهذه الأمة التي عادت إلى مربع الأمية من باب الفكر (الأمية الفكرية) على الأقل. أرجو من الله أن يمنحني أجرَي المصيب أو أجر المخطئ في كل الأحوال، وأن يرزقني سداد العقل وإخلاص القلب.

الأساس الأول
التمحور حول الأفكار لا الأشخاص

يُعلّم الإسلام أتباعه أن يتفاعلوا مع كل من حولهم، وفي سياق هذا التفاعل لا شك أنهم يلاقون من يتفقون معهم ومن يختلفون معهم، من يحبونهم ومن يكرهونهم، لكن أصول الإسلام تجعل محور الاتفاق أو الاختلاف، والحب أو الكره، هو ما يحمل أولئك الناس من أفكار صحيحة أو سقيمة مع اعتبار النسبية في الصواب والخطأ، إذا كان الاختلاف مع مسلمين، واعتبار النسبية كذلك في الهدى والضلال إذا كان الاختلاف مع غير مسلمين.

١- الإيمان أعمال وصفات لا أشخاص ومسميات:

من يقرأ القرآن أو صحيح السنة سيجد الحديث عن الإيمان وافراً، إذ يتغلغل إلى كل ما يسمى بشُعب الإيمان التي تنتظم الحياة، وسيجد في تلك المواضع كلها أن الإيمان صفات تتجسد وأعمال تتحقق في الواقع، وليس مجرد دعاوى وأماني وأسماء.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥)؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ .... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١-١١)؛ وعندما ادعت مجموعة من المسلمين الإيمان دون أن يتحققوا بصفاته وأعماله ومتطلباته رد القرآن عليهم دعواهم، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٤- ١٥).

إذن، الإيمان ابتداء يعلّم المسلم أن يتجه إلى المضامين لا إلى الأشكال، وإلى المسميات لا إلى الأسماء، وإلى الأعمال لا إلى الأشخاص، وهي خطوة في طريق الألف ميل نحو التحقق بالموضوعية.

ولهذا فإن الأعمال هي محط نظر الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة:١٩٧)، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥)، ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس:٤٦)، والجزاء في الآخرة منوط بالأعمال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٧) ، وقبل هذا وذاك فإن دار الدنيا كلها يمكن تلخيصها بأنها اختبار في الأعمال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ (الملك:٢)، ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (الكهف:٧) .

٢- الرسالة فكرة لا شخص:

الأنبياء والمرسلون كلهم كانوا بشراً يتصفون بكل ما يتصف به البشر من صفات في الأصل، لكن الله اصطفاهم واجتباهم لحمل هذه الرسالة، وعصمهم في كل ما يخرم في تبليغ الرسالة وأوجب على الناس طاعتهم واحترامهم، ليس لذواتهم ولكن لما يحملون من أفكار هادية وأنوار مضيئة وتعاليم سامية فيها صلاح العباد في المعاش والمعاد.

وبسبب طبيعة الشخصنة التي جُبل عليها العقل العربي قبل مجيء الإسلام، ونظراً لما شاع من علل التدين عند الأمم السابقة، ومن ذلك اتجاه التقدير والتقديس من الدعوة إلى الداعية ومن الرسالة إلى الرسول، فقد وردت آيات كثيرة تلفت أنظار المسلمين إلى قداسة الرسالة لا الرسول، مربية إياهم على هذه الحقيقة بطرق متعددة وفي مناسبات وسياقات مختلفة.

ومن ذلك تأكيد (عبودية) الرسول ﷺ لله تعالى، فقد ورد الخطاب المباشر له ﷺ من قبل ربه بصيغة فعل الأمر ﴿أَعۡبُدَ﴾ خمس مرات في القرآن، وجاء لفظ العبودية على لسانه ﷺ ﴿أَعۡبُدُ﴾ اثنتي عشرة مرة، ووصفه الله بالعبد عشر مرات في القرآن كلها في حالات مرتبطة بالتشريف

والتكريم مثل إنزال القرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، والإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١)، حتى لا يتحول هذا التكريم في أذهان المسلمين إلى نوع من التقديس، كما فعل أصحاب بعض الديانات السابقة بأنبيائهم.

وظل القرآن يعلم محمداً ﷺ كيف يظهر بشريته المتصفة بالضعف والنسبية والعجز والفقر أمام ربه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ...﴾ (الأنعام:٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس:١٥).

ويمكن الوقوف أمام آية أكثر صراحة ووضوحاً في قضية لفت الأنظار إلى الرسالة لا إلى الرسول، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤)، بمعنى أن الرسالة، لا الرسول، هي محور الارتكاز والدوران والتمحور.

وفي سبب نزول هذه الآية أخرج ابن المنذر عن عمر، رضي الله عنه، قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدتُ الجبل، فسمعت يهود تقول: قُتل محمد، فقلتُ: لا أسمع أحداً يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه، فنزلت الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: «لما أصابهم يوم أحد ما أصابهم من القرح وتداعوا نبي الله، قالوا: قد قُتل، فقال أناس: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به، فأنزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾»[1].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يربي أصحابه على هذه القيمة، بل ويقاوم كل محاولة لإطرائه، مما يمكن أن يكون طريقاً سالكاً إلى تقديسه وشخصنة دعوته ولو على المدى البعيد، فقد نهى عن تعظيمه والقيام له، وكان شديد التواضع في كل شيء حتى في لبسه ومشيته وأكله وشربه بل وفي جلسته، حيث اشتهر عنه جلوسه كما كان يجلس العبيد وأكله كما كان يأكل العبيد، وكان ﷺ دائم التنديد بمظاهر الشخصنة عند بني إسرائيل لأنبيائهم بما فيها اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد.

---

(١) عبدالرحمن السيوطي (ت/٩١١هـ)، أسباب النزول، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ط١(القاهرة: دار الفجر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص٩٧.

ومما أثر عنه في هذا السياق، قوله ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**»[1].

وإمعاناً في إبراز بشريته ﷺ فقد كان يستشير أصحابه في كل الأمور التي لا وحي فيها، وكان يستجيب لشوراهم حتى لو جاء الرأي من صغار الصحابة، كما حدث من الحُباب بن المنذر، رضي الله عنه، في مسألة توزيع الجيش يوم بدر (سنة٢هـ) ، ولو خالفت هذه الشورى قناعته الشخصية، كما حدث في أمر الخروج لملاقاة قريش في موقعة أحد (سنة٣هـ).

وبموجب بشريته واجتهاداته الفكرية عند عدم وجود النص، فقد ثبت أنه ﷺ اجتهد فأخطأ مرات عدة، ليترل القرآن يسدده، مثلما حدث من أخذ للفدية من أسرى (بدر) المشركين، ومن إذن للمنافقين دون وجود أعذار حقيقية، ومن إعراضه عن عبدالله بن أم مكتوم، رضي الله عنه، وإقباله على المشركين، كما في مطلع سورة «عبس»، ومن تحريمه لبعض ما أحل الله له، إما جاريته مارية القبطية أو العسل إرضاء لبعض زوجاته، كما سجلت مطلع سورة التحريم ذلك العتاب الإلهي[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) حول اجتهادات النبي ﷺ وتسديد القرآن له، انظر كتابنا: تيارات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث، ط١(تعز: المبدعون للطباعة والإعلان، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص٢٦- ٢٩.

ولتربية الرسول ﷺ لأصحابه على الدوران مع الإسلام حيث دار، لا مع شخصه هو، فقد ظهرت آثار هذه التربية على صحابته وخاصة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى أن موته ﷺ لم يقض على الأمة رغم تكالب الأعداء عليها، وارتداد كثير من الشخصانيين بمجرد سماعهم بموته، وقد كان موقف أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قوياً يطاول الجبال في شدتها ورسوخها، حيث وقف كالطود الأشم في وسط المسلمين، تالياً قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤)، ثم قال: «**أيها الناس، من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات**»[١].

وقد اتسم الصحابة عموماً بالارتباط بالفكرة الإسلامية لا بخلفائهم وقوادهم، وعندما كانت تظهر بعض الحالات المرضية الشاذة من قبل حديثي الإسلام، كان الكبار يتصدون لها، مثلما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عندما عزل عن قيادة جيش المسلمين في الشام خالد بن الوليد، رضي الله عنه، بسبب ارتباط بعض المسلمين به شخصياً، مرجعين النصر إلى عبقريته العسكرية[٢].

---

(١) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، ٤١٨/١، رقم ١١٨٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه (بيروت: دار القلم) ٣٠٦/٤.

(٢) انظر: عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي منطلقات ومواقف، ط٣ (دمشق: دار العلم، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) ص٢٣٦-٢٣٧.

٣- الاتباع للأفكار لا الأشخاص:

من يقرأ آيات القرآن التي ترد فيها مفردة «الاتباع» فسيجد أن الاتباع يكون دائماً للفكرة لا للشخص، وهذه نماذج من تلك الآيات: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يس:١١)، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (يوسف:٣٨)، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية:١٨)، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وأستطيع الجزم بأنه لا توجد آية تتحدث عن اتباع المؤمن إلا لنبي أو رسول أو لفكرة، وإذا وردت إشارة إلى اتباع أشخاص، فإن هذا الاتباع يكون منضبطاً بالفكرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الطور:٢١)، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦).

وفي ذات المربع ندد القرآن في عشرات المواضع بالاتباع الأعمى للأهواء، وللآباء، وللظلمة والجبابرة[١].

---

(١) راجع هذه الآيات مجموعة في: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص١٤٩، ١٥٢ .

ويمكن اعتبار الآية المركزية للموضوعية التي يدرسها هذا البحث، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر:١٨). فالمسلم في تفاعله مع الآخرين، ينظر إلى القول «الموضوع» دون القائل «الشخص»، بمعنى أن كل قول ينبغي أن يخضع للفكر والمراجعة والتمحيص دون اعتبار لقائله، ولذلك قال القرآن «يستمعون» لا «يسمعون» وزيادة المبنى تفيد زيادة المعنى، بمعنى أن الموضوعية تقتضي عدم النظر إلى القائل حتى يتم التحرر من الذاتية، وتقتضي إعمال العقل بعمق وليس إعمال السمع فقط، مع ضرورة التحلي بآداب السمع وآداب الحوار الذي لابد أن يتبع عملية (الاستماع)!

ومن المعلوم أن إحدى محطات الانحراف عند أهل الكتاب هي تمحورهم حول الأشخاص أكثر من الأفكار، ولذلك انحرفوا عند انحراف علمائهم حتى أنهم شرعوا لهم ما لم يأذن به الله وما لا يتفق مع الرسالة، التي جاء بها موسى وعيسى وغيرهما، وقد سجل القرآن هذا الانحراف الخطير في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٣١)، ولو دار بنو إسرائيل مع الفكرة لرفضوا تحريم الحلال وتحليل الحرام، لكن حضور الشخصانية في مقابل غياب الموضوعية قادهم إلى هذا المأزق العقدي الكبير!

٤- البراءة من أعمال المخالف لا من شخصه:

لا شك أن عقيدة الإسلام تتضمن الولاء والبراء، والحب والكره، لكن هذه المشاعر والمواقف تتجه إلى الأعمال لا إلى الأشخاص. وهذا ما أثبته القرآن الكريم. فقد علّم الله نبيه محمداً ﷺ قائلاً ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء:٢١٦)، فهو ﷺ لا يبرأ من أشخاصهم وإنما من أعمالهم، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٤١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٩).

وعندما يرتكب المخالف ذنباً فإن الإسلام لا يجيز تعييره بهذا الذنب، بل نَعَتَ الله المؤمنين بأنهم لا يصفون المخالف بما اقترف من ذنب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ (القصص:٥٥)، فقد سمى الله اللغو المخالف للطاعة أعمالاً!.

وعلى لسان لوط، عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ (الشعراء:١٦٨)، فهو يبغض أعمالهم المشينة المتمثلة بالكفر بالله والفساد الأخلاقي والشذوذ الجنسي، لكنه لا يكره أشخاصهم. وعندما أنزل الله تعالى العذاب على هؤلاء أشار القرآن إلى الأعمال لا إلى الأشخاص، فقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ

ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأنبياء:٧٤)، وكان لوط قد دعا الله قبل ذلك فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء:١٦٩).

وعندما يهاجم القرآن غير المسلمين، فإن هجومه ينصب على الأعمال لا على الأشخاص، مثل قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦)، ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القصص:٨٤).

ولأن السنة الصحيحة هي قبس من مشكاة القرآن فقد مضت في نفس الطريق، حيث البراءة من فعل المعصية لا من العاصي نفسه. ومما ورد في هذا السياق أن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قَتل أحد المقاتلين في بعض معاركه، بعد أن نطق الشهادتين لما رأى سيف خالد يرتفع فوق رقبته، فعاتب النبي ﷺ خالداً عتاباً مراً ثم قال ﷺ: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**»[١]. وفي هذا السياق أمر القرآن بالتعامل مع الظاهر وعدم التشكيك بالنيات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء:٩٤).

وعندما قال أبو ذر الغفاري لبلال، رضي الله عنهما: «يا ابن السوداء» غضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً وقال لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك**

---

(١) أخرجه البخاري، زين الدين الزبيدي: مختصر صحيح البخاري (القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٦) رقم ١٥٩٦، ص٤٧٤.

جاهلية»[1] و لم يقل له إنه جاهلي، فاتجه نقد النبي ﷺ إلى الثقافة التي دفعته إلى هذا الموقف وتلك العبارة!

وأخرج ابن عساكر عن أبي قلابة أن أبا الدرداء ﷺ مر على رجل قد أصاب ذنباً، فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم! قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، تقولوا: اللهم اخزه، اللهم العنه! ولكن سلوا الله العافية، فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم علام يموت، فإن خُتم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن خُتم له بشر خفنا عليه[2].

وقد كان هذا ديدن الصحابة الكرام جميعاً، ففي غزوة أحد تعرض الرسول ﷺ لمحاولة اغتيال، وأصيب بجروح في وجهه وفي رجليه وكسرت رباعيته، ثم أشيع بأنه ﷺ قد قتل، ففر بعض المسلمين من مواقعهم وانتصر المشركون، ولما رأى الأنصاري أنس بن النضر، رضي الله عنه، فرار المسلمين

(١) أخرجه البخاري، ١/٨٠-٨١ ؛ أخرجه مسلم، رقم ١٦٦١؛ أخرجه أبو داود، ٥١٥٨؛ (النووي: رياض الصالحين) رقم١٣٦٠، ص٤٠٤.

(٢) محمد بن يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ٣/٥٢.

وهجوم المشركين عليهم قال ﷺ: «اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء»، فهو قد اعتذر عن ترديد بعض المسلمين لإشاعة خبر مقتله ﷺ وتقاعسهم عن القتال بسبب ذلك، وتبرأ مما فعل المشركون برسول الله ﷺ وصحابته، ولم يتبرأ من أشخاصهم، رغم أنه قال هذه العبارة وهو في قمة الانفعال الناتج عن هزيمة المسلمين وخبر مقتل النبي ﷺ الذي لم يتضح أنه كان إشاعة إلا بعد استشهاد أنس بن النضر، حيث قام مقاتلاً وهو يقول لإخوانه: «قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ»!

وروي عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أيضاً قوله: «لا تبغض من أخيك المسلم إذا عصى إلا عمله، فإن تركه فهو أخوك»!

ويقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال». وهي حكمة تجسد موضوعية الصحابة، منطلقة من نور قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر:١٨).

ولأن الموضوعية بهذه الدقة المتناهية في التمحور حول الأفكار لا الأشخاص، فإنها كثيراً ما ترد في القرآن تحت عنوان «الحق»، فالقرآن يستخدم تعبيره الخاص عن الموضوعية وهو الحق، فهو يدعو المؤمنين للإيمان بالحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق . وفي هذا السبيل يحرم القرآن كل صور الهوى والغرض والأنانية والذاتية كائنة ما كانت وفي كل المجالات[1].

---

(١) جمال البنا، الإسلام والعقلانية (القاهرة: دار الفكر الإسلامي، ٢٠٠٣) ص٨٤ .

وعندما بدأ يضعف اتصال المسلمين بالقرآن، بدأت صلتهم بالموضوعية تخف، فإن ضعف الاهتمام بالفكرة الإسلامية أبرز الشخصانية على أوسع نطاق، حتى تفرقت الأمة الواحدة التي شبهها النبي ﷺ بأنها كالجسد الواحد، والتي كانت تدور حول فلك الإسلام «الفكرة»، لتتمزق إلى فرق وتتشظى إلى طوائف ومذاهب، غلب عليها التمحور حول أشخاص والتعصب لهم بالحق وبالباطل، ووصلت الشخصانية إلى حد أن الفرقة الواحدة تشظت إلى فرق وفقاً للولاء الشخصي لهذا القائد أو ذاك، مثل فرقة الخوارج التي انقسمت إلى عشرين فرقة سميت بأسماء أصحابها(١).

وكانت بداية الانقسام مرتبطة بعدد من العوامل، وكانت الشخصانية إحداها.

---

(١) انظر: عبدالقاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت.) ص٨٩، ١٢٨.

الأساس الثاني
العدل والاعتدال في حالتي الحب والكره

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مجموعة من المقاصد السامية في حياة الناس، أهم هذه المقاصد على الإطلاق العدل مع القريب والبعيد، وحتى تتحقق الموضوعية لابد من قيامها على العدل في التعامل مع الجميع، وعلى الاعتدال في الحب والكره، فإن الإفراط في الحب أو الكره يخرج الإنسان عن سياق الموضوعية.

ولكي يقوم هذا الأساس كما ينبغي لابد من تحقق النقاط الآتية:

١- مكافأة الجزاء للعمل:

إن كل إنسان معرض لأن يحسن وأن يسيء، ومن مقتضيات الموضوعية تفعيل مبدأ الثواب والعقاب. وقد علّمَنا القرآن الانضباط في هذا الأمر بحيث يتوازى الثواب مع الإحسان، بمعنى أن لا يقل عنه، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن:٦٠)؛ وبحيث يتكافأ العقاب مع الإساءة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ (النحل:١٢٦)، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:١٩٤)، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى:٤٠)، ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ (يونس:٢٧).

ولأن من طبيعة البشر الانفعال والميل إلى الثأر والانتقام ممن أساؤوا إليهم بدون التقيد بموازين العدل والموضوعية، فقد أكد الله أهمية الانضباط والالتزام بموازين العدل في مواضع عديدة من القرآن وبأساليب مختلفة.

أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، والبزار عن أبي هريرة، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مُثّل به فقال: «**لأمثلن بسبعين منهم مكانك**»، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر السورة، فكفَّ رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد[1].

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن أبيّ بن كعب، رضي الله عنه، قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة بن عبد المطلب فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم في التمثيل، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ الآية[2].

ومن الآيات التي تشرع للمماثلة في العقاب، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٠)[3].

---

(١) السيوطي، أسباب النزول، ص٢٤٨؛ وفي الهامش أن هذه الرواية ضعيفة إذ أن فيها يحي الحماني وهو ضعيف.

(٢) نفسه، ورقم الحديث في الترمذي ٢١٣٩.

(٣) راجع سبب نزول هذه الآية في المرجع السابق، ص٢٨١.

وهناك آيات كثيرة تبين كيف أن الله ذاته يجزي المحسنين بإحسانهم ويجزي المسيئين بإساءاتهم، بحيث يحتسب مقدار الذرة من الخير أو الشر ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٨٩-٩٠)، ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (الأنعام:١٦٠).

وفي الإحسان شرع الإسلام الجزاء المماثل أو الأفضل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠)، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (النساء: ٨٦)، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦).

وحث النبي ﷺ على شكر صاحب الإحسان، فقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»[١].

ومن الشكر الثناء على صاحب الفضل، والتنويه بأسبقيته وأفضليته، مثلما فعل النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حيث أثنى عليه ﷺ وأبرز تميزه بين الصحابة في أحاديث وقصص عدة[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود، السنن، ح/٤٨١١.

(٢) انظر: محمد بن علي بن عوض ملهي، لمحات من تربية النبي ﷺ لأبي بكر، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بالجامعة الوطنية في مدينة تعز باليمن سنة ٢٠٠٧م، ص٨٧-٩٣.

٢- عدم بهت الخصوم والإشادة بإيجابياتهم:

من يقرأ آيات القرآن الكريم يجد أنها تعترف لغير المسلمين بأعمال حسنة تختلف نسبياً من طائفة إلى أخرى، وعلى العموم فإن المشركين وأهل الكتاب والمنافقين يقومون بأعمال طيبة في الدنيا، وقد نطقت عشرات الآيات بأن الله يحبط هذه الأعمال في الآخرة، بسبب الخلل الموجود في عقيدة هؤلاء[١].

وقد علمنا القرآن درساً كبيراً في الإقرار بإيجابيات الآخرين، عندما أورد الله تعالى مقولة ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل:٣٤)، فإن السياق يؤكد أن جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هي من كلام الله عز وجل، الذي أقر ما نطقت به الملكة من حقيقة حول فساد الملوك وإفسادهم. هذا الإقرار من الله لفكر الملكة «بلقيس» جاء رغم أنها كانت ما تزال كافرة، حيث كانت وقومها يعبدون الشمس من دون الله، وهو درس للمسلمين لكي يلتفتوا للموضوع وليس لصاحب الموضوع، حتى يكون حكمهم منصفاً.

---

(١) من هذه الآيات: (الأنعام:٨٨)؛ (المائدة:٥، ٥٣)؛ (هود:١٦)؛ (البقرة:٢١٧)؛ (آل عمران:٢٢)؛ (الأعراف:١٤٧)؛ (التوبة:١٧، ٦٩)؛ (الكهف:١٠٥)؛ (الأحزاب:١٩)؛ (محمد:٩، ٢٨، ٣٢).

والآية الأهم في مقام النهي عن بهت الآخرين، ولو كانوا خصوماً، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ (الأعراف:٨٥) ، وقد وردت هذه الجملة على لسان النبي شعيب، عليه السلام، حيث اشتهر قومه بالأنانية والتطفيف، إذ يكيلون لأنفسهم بمكيال وللآخرين بمكيال آخر، سواء ارتبط هذا التطفيف بالماديات أو بالمعنويات، ولذلك فقد تكررت هذه الجملة بنفس الحروف في ثلاث سور من القرآن الكريم، في: (الأعراف:٨٥)، وفي (هود:٨٥)، وفي (الشعراء:١٨٣)[١].

إن من ظُلم جاز له أن ينال ممن ظلمه ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى:٤٠)، سواء كان هذا النيل عملياً أو لفظياً: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ (النساء:١٤٨)، ولكن هذا النيل اللفظي لا يجوز أن يتجاوز الحدود، بمعنى أنه يجب أن يكون على قدر الإساءة، ولا يجوز أن يقول المظلوم عن ظالمه ما ليس فيه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، أما من يرمي خصمه بما ليس فيه، بل بما فعله أو قاله هو، وهو ما يسمى في علم النفس بـ«الإسقاط» فإنه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١١٢).

(١) حول هذه الآية راجع: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار معروف، عصام الحرستاني، ط١(بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ٤٦٥/٣-٤٦٦.

وقد حذر الإسلام من الفجور في الخصومة، والفجور في السياق القرآني يأتي عكس البر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ (الانفطار:١٣-١٤).

يقول عبد الكريم بكار: فإذا ذُكر فاسق أو شاعر ملحد، أو عدو عاقل، وأردنا تقويمه وجب أن يُشار إلى الصفتين معاً إنصافاً له أولاً، ومحافظة على رؤية متوازنة للأمور ثانياً، وحرصاً على تكوين مزاج صحيح للأمة ثالثاً، وإبقاء على هامش للتفاعل معه رابعاً. وهذا ما مضى عليه الراشدون من سلف هذه الأمة إلى أن تفشت الأوبئة الخلقية، والعور الفكري، وعمى الألوان، وتحولت الأمة إلى أحزاب و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)[١].

وعلى سبيل المثال، فإن الإمام علي في خلافه مع معاوية، رضي الله عنهما، والذي وصل إلى حد الاقتتال، لم يغمط لمعاوية فضله، وكذلك معاوية الذي كان يحب علياً ويعترف له بالعلم والفضل والأسبقية، بل إنه بكى عليه عند استشهاده[٢].

وكان الحسن البصري، رحمه الله، أحد سادة التابعين وأحد الذين تعرضوا للأذى من قبل الحجاج، والي العراق أيام الخليفة الأموي

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي، ص١٢٩.

(٢) انظر: علي الصلابي، أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره (الإسكندرية: دار الإيمان، ٢٠٠٣م) ص٩٠٥ .

عبد الملك بن مروان، ورغم ما فعل الحجاج من أخطاء وخطايا وصلت إلى حد إراقة دماء كثير من العلماء وتعذيب بعضهم، فإنه -أي الحسن- عندما سُئل عنه قال: «يتلو كتاب الله، ويعظ وعظ الأبرار، ويطعم الطعام، ويؤثر الصدق، ويبطش بطش الجبارين»[1]، فأبرز محاسنه ومساوئه!.

وكنموذج للفرد المسلم الذي كان حذراً من الوقوع في بهت الخصوم، يروى أن رجلاً شَتم المهلب بن أبي صفرة الأزدي (ت/٨٢هـ) وهو القائد المشهور فلم يرد عليه، فقيل له: لِمَ حلمتَ عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[2]، وهذه كانت أخلاق المسلمين عموماً، وبهم قامت تلك الحضارة العظيمة؛ لأن الموضوعية تثمر العدل، والعدل من أهم عوامل الفاعلية والتمكين في هذه الأرض.

٣- احترام المعايير الموضوعية:

وضع الإسلام معايير ثابتة للثواب والعقاب، وحتى المعايير المرنة فإن مرونتها تدور مع الأفكار والحالات، لا مع الأشكال والشخصيات . ومن ثم فإن الأقارب والأباعد، المتقين والفاسقين، تنطبق عليهم ذات المعايير التي

(١) ابن الجوزي، آداب الشيخ الحسن البصري، ص١٢٠؛ نقلاً عن علي الصلابي، الدولة الأموية.. عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ط١ (الشارقة: مكتبة الصحابة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ١/٧١٥؛ وعن جرائم الحجاج في التعدي على حدود الدين وحرمات الناس، وقتله للناس وعلى رأسهم العلماء بالشبهة، وسبه لبعض الصحابة، انظر: الصلابي، الدولة الأموية، ١/٧٠٨، ٧١٣ .

(٢) الكامل في اللغة والأدب، ٢/٣١٤؛ نقلاً عن: الصلابي، الدولة الأموية، ١/٦٩٢.

لا تحابي أحداً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (البقرة:١٧٨).

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، رحمه الله، قال: إن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدد والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يُقتل بالعبد منا الحرُّ منهم، والمرأة منا بالرجل منهم، فنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (البقرة:١٧٨)[١].

وتحت عنوان: «الله ليس منحازاً لأحد» أورد فهمي هويدي من الآيات وأقوال علماء المسلمين ما يؤكد أن الله ينظر إلى الناس جميعاً بمختلف أديانهم بذات النظرة، فهو لا يحابي أحداً، وأن النصر والتمكين يقومان على معايير «موضوعية» لا تحابي أحداً، مثل ما حدث في موقعة «أحد»، حيث إن انتصار المشركين «كان لأسباب موضوعية بحتة»[٢].

(١) السيوطي، أسباب النزول، ص٤٧.
(٢) القرآن والسلطان.. هموم إسلامية معاصرة، ط٢(القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص١٨٩، ١٩٦ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (النساء:٥٨)؛ لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة، رضي الله عنه، فلما أتاه قال: «أرني المفتاح»، فأتاه به فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية، فكفَّ عثمان يده. فقال رسول الله ﷺ: «**هات المفتاح يا عثمان**». فقال: هاك بأمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح، فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (النساء:٥٨)[١].

وهكذا لا مجاملة ولا محاباة في أي أمر من الأمور، فما ينطبق على الأقارب ينطبق على الأباعد، وما ينطبق على المسلمين ينطبق على غيرهم، قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ (النساء:١٢٣).

فقد تفاخر أهل الأديان، حيث جلس ناس من اليهود وناس من النصارى وناس من المسلمين، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فنزلت هذه الآية[٢].

---

(١) السيوطي، أسباب النزول، ص١٢٣؛ الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص١١٦-١١٧.
(٢) نفس المرجع، ص١٤٤.

وقد حذر النبي ﷺ من اختلال معايير العدالة في المجتمع الإسلامي؛ لأن ذلك سيكون إيذاناً بتخلف هذا المجتمع وضعفه وانحطاطه، ففي الحديث عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْد، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!**» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ! وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[1].

٤- العدل في التعامل مع الآخرين:

إن المسلم الحق هو الذي لا يخل بميزان العدل مع خصمه وعدوه فضلاً عن المنافس له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨)[2] فلا يصح شرعاً أن يدفع كره المسلم للكفر أن يتخلى عن موازين العدل، نظراً لما أسلفنا في بيانه، من أن الكراهة تتجه للكفر والنفاق والعصيان وليس للشخص.

---

(١) أخرجه مسلم، الحافظ زكي الذين المنذري، مختصر صحيح مسلم (القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٦م) رقم ٨٦١، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٢) انظر تفسير هذه الآية في: الطبري، جامع البيان، ٣/٤٤-٤٥؛ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون، د.ت.) ٤/١٣٤-١٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢)، وهـي دعـوة إلى عـدم الاستجابة لعواطف الكره والبغض بحيث تدفع صاحبها إلى الاعتـداء، بـل يجب التعاون بين المسلمين وغيرهم إذا كانت هناك قواسم مـشتركة بـين الطرفين مرتبطة بحقوق الناس «البر» أو بحقوق الله «التقوى»[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم، رضي الله عنه، قـال: كـان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقـد اشتد ذلك عليهم، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المـشرق يريـدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصدُّ هؤلاء كما صدوا أصحابنا، فأنزل الله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ...﴾ الآية[2].

والمسلم مطالب، كفرد وكمجتمع، أن يتعامل بالإقساط مـع غـيره، بحيث يعطي لكل صاحب حق حقه بدون غمط، بحيث يمتلك ميزاناً دقيقاً لتقدير حقوق الآخرين، مادية كانت أو معنوية، فيستوفيها لهم من نفـسه، قال تعـالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ (الإسـراء:٣٥)، وقـال: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩).

---

(١) قارن هذا المعنى بتفسير الطبري، جامع البيان، ٣/١١-١٢.

(٢) السيوطي، أسباب النزول، ص١٥١.

والعدل بمعناه العريض، إعطاء الحقوق لأصحابها وأداء الأمانات لأهلها، هو القاعدة الصلبة التي تحفظ لأي مجتمع تلاحم أبنائه وتكويناته ومفرداته، وإذا غاب العدل فإن هذا المجتمع لا شك آيل إلى السقوط، ولا فرق بين أن يكون هذا المجتمع مسلماً أو غير مسلم.

يقول الطرطوشي: «إن السلطان الكافر الحافظ لشروط السياسة الاصطلاحية أبقى وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيع للسياسة الشرعية. والجور المرتب أبقى من العدل المهمل، إذ لا أصلح للسلطان من ترتيب الأمور ولا أفسد له من الحكم، ولا يقوم سلطان إيمان أو كفر إلا بعدل نبوي أو ترتيب اصطلاحي»(١).

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، إلى أبعد من ذلك، إذ قال: «فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة. ولهذا يُروى «الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»(٢)، وقال ابن تيمية في موضع آخر: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم يشترك في إثم. ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم

---

(١) محمد بن الوليد الطرطوشي، سراج الملوك (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤م) ١/٥٤.

(٢) الحسبة في الإسلام (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.) ص٧.

والإسلام... وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة»[١].

ومن يقرأ ما سطره كبار علماء الأمة من القدامى، يلاحظ أنهم في تأكيدهم القيمة المركزية للعدل في بناء المجتمع الإسلامي لم يغادروا نفس المربع الذي وقف عليه الإمامان الطرطوشي وابن تيمية، ومن هؤلاء: الغزالي والشاطبي والعز بن عبدالسلام وابن القيم والماوردي والفراء والجويني[٢].

ولو ألقينا نظرة على هذه القيمة في واقع حياتنا كمسلمين في هذا العصر في مقابل المجتمعات (الأخرى)، سنحصل على أهم نقطة في الجواب على السؤال المطروح دوماً: لماذا انهزمنا في هذا العصر وانتصروا ؟ لماذا اختلفنا وتوحدوا، لماذا تخلفنا وتقدموا ؟!.

وفي الوقت نفسه سنهتدي لأهم سبب في قوة مجتمعاتنا الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى، فقد كان العدل (بوصلتهم) وكان القسطاس ميزانهم، وكان الإنصاف ديدنهم، مهما تعددت المشارب الفكرية وتنوعت المذاهب الفقهية، بل ومهما كانت طوائفهم ومدارسهم، حيث يحدب بعضهم على بعض، ويسدد بعضهم بعضاً، ويعذر بعضهم بعضاً[٣].

---

(١) الاستقامة، ط١ (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) ص٣٦٨-٣٦٩.

(٢) راجع مثلاً: فهمي هويدي، السلطان والقرآن، ص١٥٧-١٦٢؛ أسعد السحمراني، العدل فريضة إسلامية والحرية ضرورة إنسانية، ط١(بيروت: دار النفائس، ١٩٩١م).

(٣) أورد عبد الكريم بكار نماذج عدة لأعلام المسلمين في سياق إنصاف الخصوم والمتنافسين لبعضهم بعضاً، فصول في التفكير الموضوعي، ص١٣٣-١٣٧.

٥- الاعتدال في حالتي الحب والكره:

لا شك أن كل إنسان يمتلك عواطف الحب والكره بين جوانحه، ولا شك أن للحب ما يبرره وللكره ما يبرره، ولكن لا شك أيضاً أن الإسلام أوصانا، كما أسلفنا، بتوجيه الحب والكره إلى العمل وليس إلى الشخص، وكذلك أوصانا بضبط عواطف الحب والكره حتى لا تخرج عن نطاق المشروع والمعقول، بحيث لا يصل الحب إلى التقديس ولا يصل الكره إلى الرفض الكلي والقطيعة الكاملة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٣٥)؛ إذ أن المبالغة في الحب أو الكره تعمي بصيرة العقل عن التفكير السوي والإدراك السليم واتخاذ القرارات والمواقف الصائبة، وهذا كله بحاجة إلى تصدي وقيام كثير ودائم ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

ولاتسام الصحابة العظام بالاعتدال في حبهم وكرههم، فقد كانوا في أعلى ذرى الموضوعية والتفكير المنطقي السليم، مما كان له أكبر الأثر في التمكين الذي تحقق لهم في الأرض خلال برهة من الزمن.

وعندما بدأ الناس يبتعدون عن المنهج القرآني والطريقة الراشدية في التعامل مع القرآن فهماً وتنزيلاً، تصدى لهذا الانحراف كبار الصحابة، سواء كانوا أمراء أم علماء.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال لي عمر بن الخطاب ﷺ: «يا أسلم لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً»، قلت: وكيف ذلك؟ قال: «إذا أحببت فلا تَكلَّف كما يكلفُ الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يَتْلفَ صاحبُك ويهلك»[1].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[2].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، رقم٢٠٢٦٩؛ والبخاري في الأدب المفرد، رقم١٣٢٢؛ والبغوي في شرح السنة، ٦٥/١٣؛ وصححه الألباني في الأدب المفرد، ص٥٠١-٥٠٢؛ مازن الفريح، الرائد دروس في التربية والدعوة، ط٢(جدة: دار الأندلس الخضراء، ١٤٢٥ ٢٠٠٤) ٧٠/١-٧١ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم١٣٢١؛ البغوي في شرح السنة، ٦٥/١٣-٦٦، وقال البغوي: ورفعه بعضهم عن علي وعن أبي هريرة والصحيح أنه موقوف؛ وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص٥٠١: وقد صح مرفوعا، مازن عبدالكريم، الرائد، ٧١/١.

ولما كان الحب والكره مشاعر يصعب قياسها، فإن المقياس المادي والعملي هو أن لا يصل الحب إلى درجة عدم رؤية نواقص وأخطاء المحبوب، وأن لا يصل الكره إلى حد إعماء البصر عن رؤية محاسن وإيجابيات المكروه، وكذلك أن لا يكون الحب عدسة تُكبِّر حسنات من نحب وتصغِّر حسنات من نكره، أو عدسة تصغِّر أخطاء من نحب وتكبر أخطاء من نكره، بمعنى أن الموضوعية تقتضي أن ينظر الشخص إلى من يحب ومن يكره بنفس المنظار، كالمصور الذي يصوِّر المنظر الذي يحبه والمنظر الذي يكرهه بنفس العدسة، بحيث تخرج الصورة كما هي هنا وهناك.

ومن يقرأ كتب التراث الإسلامي المتأخرة، وخاصة كتب السير والتراجم يرى من المبالغات ما لا يتصوره عاقل ولا يتقبله منطق، سواء في الحكايات العجيبة التي تُنسب لمن يحبه أصحاب الكلام، بحيث أن بعض العلماء والأئمة ارتفع بهم محبوهم عن البشرية إلى الملائكية، وفي الشق الآخر، يُنسب أحياناً لنفس هؤلاء الأشخاص من قبل من يكرهونهم حكايات تنحط بهم عن درجات البشرية إلى البهائمية أو الشيطانية!

هذا حدث من المتعصبين مع وضد، والذين لم يطلعوا على أدبيات هذا الدين و لم يتدبروا القرآن أو يفقهوا السنة النبوية فكانوا مثالاً للإفراط الشديد في الحب والكره، في المدح والقدح، مما يؤكد الضرورة القصوى لضبط وتنظيم عواطف الحب والكره.

إن هذا الضبط للعواطف من السبل الموصلة إلى التحقق بالموضوعية والتفكير المستقيم.

ومن تنظيم وضبط عواطف الكره والرفض: النظر إلى الذنب لا إلى المذنب، وكف التجاوز ضد الشخص المكروه، مهما كان المبرر، بحيث لا يتم تجاوز الحق أو العدل، فلا اعتداء أو ظلم أو جور أو إسفاف أو سب أو افتراء، وأن يبقى رد الفعل محكوماً بحدود الشرع[1].

و«لعل ما يجمع عواطف القبول كلها هو الحب، فالحرمة والعطف والود والتسامح وما إليها إنما تصدر عن محبة لا عن كراهية، والحب عاطفة إنسانية متميزة، تحيل قلب المحب خلقاً آخر، أكثر طواعية وتقبلاً واستجابة لمن يحب، وتملأ النفس البشرية بمشاعر حساسة، حيث ترق حواشيها ويلين قاسيها، ويندى جفافها، وتصبح سلسة القياد، وضيئة الخلق، رقيقة الطبع، كريمة السلوك، لذلك نجد الرسول الكريم يوجهها إلى مستحقيها فعلاً، بما يضبط موضوعيتها، ويعزز الاتجاه الإيماني للمسلم»[2].

---

(١) انظر: أحمد رجب الأسمر، النبي المربي، ط١(عمان: دار الفرقان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ص١٣٢-١٣٤.

(٢) نفس المرجع، ص١٢٦ .

ولاتسام أكثر العامة بالإفراط في المدح أو القدح، لم يكن أكثر علماء السلف يفرحون بمن مدح ولا يغضبون ممن قدح، وهذا التطرف لا يأتي إلا بسبب البعد عن الموضوعية، والدوران مع الشخصانية، سواء في حالة الحب أو في حالة الكره. أما عندما يتمحور الإنسان مع غيره بموجب ما يحمل من أفكار وقيم، فإنه سيعرف طريقه إلى الاعتدال والوسطية، ومن ثم الموضوعية والإنصاف؛ لأنه لا يوجد من يحمل الخير الخالص أو الشر المحض، ولا يمكن أن يمتلك أي إنسان مهما كان الحقيقة المطلقة، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في الأساس الثالث.

الأساس الثالث

عدم احتكار الحقيقة المطلقة.. وإتقان آداب الاختلاف

لكي يقوم مبنى الموضوعية في الفكر الإسلامي المعاصر لابد من أساس ثالث، وهو انطلاق البحوث والدراسات والمناقشات والمثاقفات والمناظرات والحوارات من مُسَلَّمة لا تقبل المراجعة، وهي أن امتلاك الحقيقة المطلقة لا تكون إلا لله، فهو وحده صاحب القدرات المطلقة، أما الإنسان فمهما أوتي من عقل وفكر وتجارب، فإنه يظل نسبياً في تفكيره، نظراً لمحدودية قدراته وحواسه.

وقد اشتهرت مقولة الإمام مالك، رحمه الله: «أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وأشار إلى قبر النبي ﷺ. وقد عرفنا أن عصمة النبي ﷺ تأتي من نزول الوحي عليه، بمعنى أنه عندما يجتهد بعيداً عن الوحي فإن بشريته كانت تؤثر عليه في بعض المواقف، التي نزل القرآن يسدده ويقوِّمه فيها، فإذا كان هذا حال الرسول ﷺ وهو في قمة هرم الكمال البشري، فكيف بغيره من الناس؟

ومن استقراء شيخ الإسلام ابن تيمية لمقولات ومواقف علماء المسلمين الذين سبقوه، خرج بنفس مقولة الإمام مالك، حيث قال: «اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله»[1] .

---

(١) ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ط١(القاهرة: دار الاستقامة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص٥٤.

١- القرآن والتأسيس لنسبية الحقيقة:

في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة:٢١٩)، حرم الله الخمر والميسر تحريماً قطعياً، والله لا يحرم إلا الخبائث التي تضر بالإنسان في مبناه المادي وقوامه الروحي، ومع هذا التحريم القاطع فإن هذه الآية حملت في مضمونها رسالة فكرية ضخمة إلى قارئ القرآن، وهي اعتبار النسبية وعدم وجود الشر المحض في النظر إلى الأشياء والأشخاص، إذ ليست كل مفردات الخمر والميسر إثماً بل فيهما مفردات نافعة، لكن هذه المفردات أقل من مفردات الضرر، وعلى ذلك فإن التحريم محمول على الأغلب الأعم.

هذه المفردات النفعية القليلة في الخمر والميسر يوجد مثلها في سائر المحرمات الأخرى، ولذلك عندما توجد ضرورة كبيرة فإن تناول هذه المحرمات قد يصل إلى درجة الوجوب، فإن الفقهاء يقررون أن الإنسان إذا عطش واقترب من حافة الموت ولم يكن معه إلا خمراً وجب عليه شرب ما يمنعه من الموت، وإذا كاد أن يموت من الجوع و لم يوجد معه إلا ميتة أو لحم خنزير أو غيرهما من اللحوم الميتة، وجب عليه أن يأكل ما يسد الرمق ويحفظ الحياة.[1] ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل الحكم الفقهي،

---

(١) انظر مثلاً: شمس الدين الشربيني، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي بيح، د.ت.) ص٥/٤٧.

وإنما نود الإشارة إلى خلفيته الفكرية، حيث النسبية حاضرة بقوة، فما كان ضاراً وحراماً في موقف صار نافعاً وحلالاً في ظرف آخر، نظراً لأن البديل سيكون أسوأ وهو هلاك الإنسان، وهنا تُرتكب المفسدة الصغرى لدرء المفسدة الكبرى.

هذا الحكم الفقهي هو درس فكري للمسلم عندما يتعامل مع غيره، ومهما كان شر هذا (الغير) فإن في ثناياه بعض مفردات الخيرية التي يجب أن يعترف بها المسلم، وأن لا يبخس صاحبها إياها، وأن يستفيد منها إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وإذا كانت هذه النسبية موجودة في الشر والإثم (الخمر والميسر) أو في الكفر والنفاق، فمن باب أولى أن تكون حاضرة بقوة في الطوائف والجماعات والمذاهب والفرق التي تنتسب إلى عالم المسلمين.

وهكذا، فإن ذكر المنفعة في سياق تحريم اثنتين من الكبائر في القرآن الكريم، لابد أن الغرض منه هو إيصال هذه الرسالة الفكرية الحاثة للمسلمين على حرمة الإطلاق ووجوب التدقيق في خصائص الأشياء، وعدم التعامل معها دوماً بالأحكام الحدية، التي لا تعرف إلا الحِل أو الحرمة، الحب أو الكره، البياض أو السواد، القبول المطلق أو الرفض الكامل.

إن الإسلام وهو الدين (الحق)، عندما يتعامل المسلم مع سائر الملل والنحل، فإنه لا يتعامل معها من منطلق ادعائه بأنه يمتلك الصواب الكامل وأنها على الخطأ الكامل، وخاصة أثناء الحوارات الدعوية، وعلى الأقل على

المستوى الجدلي الافتراضي، فهذا القرآن يُعلِّم النبي ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٢٤-٢٥). فهو لا يقول نحن على الهدى وأنتم على الضلال، بل يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤)، ثم نلاحظ قمة الروعة والتواضع والإنصاف في الحوار، حيث يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٢٥)، فينسب الإجرام إلى المسلمين والعمل إلى المشركين، فأين من ذلك ادعاء أكثر طوائف وجماعات المسلمين امتلاكها للحقيقة المطلقة عند تعاملها مع سائر الجماعات والطوائف الإسلامية؟!!

وفي ذات السياق الذي لا يحتكر الحقيقة في حواره مع (الآخر)، قال تعالى على لسان موسى وهارون: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (طه:٤٧)، حيث سلما على من اتبع الهدى دون أن يبينا من هو على الهدى ومن هو على الضلال!. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه:١٣٥).

وعلى مستوى الرسالات جميعاً، جاء الإسلام خاتماً للأديان وناسخاً لكثير من أحكامها الثابتة في كتبها قبل التحريف، ومع ذلك فإن الرسول ﷺ

لـــم يقدم نفسه كبديل أو نقيض للكل، ولكنه اعتبر نفسه مجـــرد لبنـــة في صرح الرسالة الإسلامية العظيمة الممتدة إليه من آدم، عليه السلام.

عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « **مَثَلي وَمَثَلُ الأَنْبِيَـــاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ**»[1] وزاد في رواية أبـــي هريـــرة، رضي الله عنه: «**فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[2]. وحتى في تقريـــر الجـــزاء الأخروي فإن مشاهد حوارية عديدة توعدت المسيء بالنار ووعدت المحسن بالجنة بصورة عامة، قال تعـــالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (الزمـــر:٣٩-٤٠)، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الأنعام:١٣٥).

وأعطى القرآن درساً آخر في تكامل أوجه الحقيقة، وعدم احتكار أي طرف للصواب الكامل في كل الأوقات، بالإشارة إلى إمكانية تعدد الصواب في ذات المسألة، قال تعالى ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ

---

(١) أخرجه البخاري، مختصر صحيح البخاري للإمام زين الدين الزبيدي، ط١(القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٦م) رقم١٤٠٨، ص٤٠٨.

(٢) نفسه، رقم الحديث١٤٠٩، ص٤٠٨.

﴿أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (الحشر:٥)، فالأصل في الإسلام عدم جواز تقطيع الشجر، وهذا ما بقي عليه جماعة من جيش المسلمين، الذي حاصر حصون بني النضير، ولما كانت التحصينات من القوة بمكان بحيث جعلت اليهود يظنون أنها مانعتهم من الله، ولعدم توازن القوة بين المسلمين الذين يقيمون في العراء حيث الصحراء القارية الجامعة بين الحر الشديد في النهار والقر الشديد في الليل، إضافة إلى عدم وجود الماء وكثرة الهوام والزواحف السمية، لكل ذلك اجتهدت مجموعة من جيش المسلمين في البحث عن طريقة تثير الهلع والرعب في قلوب اليهود أو تدفعهم على الأقل للخروج من تحصيناتهم حيث ينعمون بالأكل والشرب والأمن، فاهتدوا إلى ضرورة تحريق بعض النخيل؛ لأنها ستؤدي إلى تحقيق الهدف المطلوب.

الشاهد في القصة أن المسلمين انقسموا في الموقف من تحريق النخيل إلى قسمين، الأول بقي على الأصل ورفض المشاركة، أما القسم الآخر فقد أوصلته طبيعة الظروف إلى ارتكاب هذه المفسدة باعتبارها مفسدة أصغر من بقاء المسلمين أشهراً في العراء في الظروف المشار إليها آنفاً، وتساءل كل طرف عن الحكم، فنزلت الآية تصوب الطرفين: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (الحشر:٥).

وحدث مثل ذلك في أمر الصلاة في بني قريظة بعد غزوة الأحزاب، حيث ندب النبي ﷺ المسلمين إلى سرعة الخروج لتأديب بني قريظة فقال مؤذنه: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»[1]. ورغم هذا النص القصير، وتقارب مستوى الصحابة، وبساطة البيئة الثقافية والاجتماعية التي يعيشون فيها جميعاً، فقد انقسموا وفق فهمهم للنص إلى قسمين: الأول أخذ بظاهر النص و لم يصلُّوا إلا بعد غروب الشمس في بني قريظة عندما وصلوا، أما القسم الآخر: فقد نظر إلى مقصد النص وهو الإسراع وعدم التأخر فصلوا في الطريق، و لم يثبت أن أحداً من الفريقين ادعى أن فريقه على الصواب والآخر على الخطأ، بل لم يثبت أن الرسول ﷺ قد صوب فريقاً وخطأ آخر، حتى من باب الخطأ الاجتهادي الذي ينال صاحبه أجراً مقابل نيل المصيب أجرين، كأنه ﷺ أراد أن يُعَلِّم المسلمين إمكانية تعدد الصواب في المسألة الواحدة، إمعاناً في تدريب المسلمين وتربيتهم على عدم ادعاء أحد امتلاك الحقيقة المطلقة؛ لأن ذلك سيحيل التعدد في الأمة من دائرة «التكامل» إلى دائرة «التآكل»، كما فعل المسلمون المتأخرون ومنهم مسلمو هذا العصر!!

---

(١) عبدالرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ط١(الرياض: دار المؤيد، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ص٤٥٤.

٢- عدم ادعاء فريق من الصحابة امتلاك الحقيقة المطلقة:

رأينا في مثال بني قريظة كيف التزم أفراد الفريقين الصمت إزاء بعضهم بعضاً، إذ يعرفون أن كلا الطرفين مجتهدان، وغاية ما يمكن أن يحدث أن يصيب طرف فيكون له أجران، ويخطئ طرف فيكون له أجر واحد، دون أن يوجد دليل على من هو المصيب ومن هو المخطئ، فلا يعلم مراد الله على حقيقته إلا هو تعالى!.

ولمعرفة الصحابة أن نصوص الدين مطلقة وأفهامهم نسبية، فقد كانوا شديدي الحذر من أن يخلط أو يدمج بعض العامة بين المطلق «الإلهي» والنسبي «البشري»، حتى أن عمر ﷺ رفض أن يكتب كاتبه: «هذا ما أرى الله عمر»، وأصر على أن يمحه ويكتب: «هذا ما رأى عمر»، أما عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، فقد سُئل عن المفوضة شهراً، ثم قال بعد الشهر: «أقول فيه برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء مما أقول، ورسوله»[1].

وقد ظل فهم الصحابة ومن جاء بعدهم وتابعهم بإحسان يقوم على الانحياز للمنهج على حساب الأشخاص، والانتصار في المحاورات والمناظرات للفكرة وليس للشخص، لمعرفتهم بصوابية الفكرة على الإطلاق ونسبية الأفهام البشرية، وعندما جاء أئمة المذاهب الفقهية، دفعهم انحيازهم للفكرة

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.) ص١٧١.

إلى النهي عن تقليدهـم، والعودة المباشـرة إلى القرآن والسـنة، وأجازوا لمن يعـجز عن هذا الأمر أن يقلدهم مع معرفة الدليل الذي استندوا إليـه، أما التقليد بدون معرفة الدليل، فقد حرموه جميعاً[1].

٣- احتكار الحقيقة إضعاف لشوكة المسلمين:

من المعلوم أن أول وأهم انقسام في أمة الإسلام، كان ما حدث بعـد استشهاد عثمان بن عفان ﷺ من انقسام المسلمين إلى قسمين رئيسين: أهل العراق وأهل الشام.

وقد حدثت ملابسات عدة وظهرت عوامل متفرقة، تضافرت كلـها على إنشاب الفتنة بين الطرفين مما أدى إلى اشـتباك الجيـشين في موقعـة «صفين» (سنة٣٧هـ) . ورغم وجود عدد كبير من حديثي العهد بالإسلام وخاصة الأعاجم، ممن ساهموا في إذكاء هذه الحرب، معتقدين أنهم أصحاب الصواب الكامل وغيرهم على خطأ كامل، إلا أن الصحابة الذين تـشربوا الإسلام من منابعه الصافية وتخرجوا من مدرسة المصطفى ﷺ كانوا يعذرون بعضهم بعضاً، مبقين الجميع في ذات دائرة الإسلام، لعلمهم أن المخطـئ في اجتهاده إنما أخطأ في التأويل. وانطلق الصحابة من القرآن الـذي يقـول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

---

(١) انظر: عبدالكريم بكار، فصول، ص١٧٣، ١٧٨.

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)، حيث أثبت الله الإيمان لكلا الطائفتين المتقاتلتين في مثل هذه الظروف التي يتشابه فيها البقر، ويكون مع كل طرف جزء من الحقيقة!

وعلى سبيل المثال، تروي بعض الكتب أن الجيشين أثناء اندلاع معركة صفين ذهبا لأداء الصلاة، وعند خروج الإمام علي، رضي الله عنه، من الصلاة، سأله أحد جنوده: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة»[١]. وفي المساء خرج الإمام علي، رضي الله عنه، إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لي ولهم[٢]. وأثناء احتدام ذات المعركة سمع عمار بن ياسر ﷺ رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك، وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة[٣].

---

(١) سنن سعيد بن منصور، ٢/٣٤٤-٣٤٥ (بسند ضعيف) نقلاً عن: الصلابي، أسمى المطالب، ص٥٦٦.

(٢) مصنف بن أبي شيبة، ١٥/٢٩٧ (بسند ضعيف) نقلاً عن: الصلابي، أسمى المطالب، ص٥٦٦.

(٣) مصنف بن أبي شيبة، ١٥/٢٩٠ (بإسناد حسن) نقلاً عن: الصلابي، أسمى المطالب، ص٥٦٧.

ولقد قامت دراسات وبحوث مستفيضة حول معركة صفين، ورصدت المعاملات الكريمة بين الطرفين، ووثقت ذلك بمراجعه ومصادره[1].

وهكذا، نلاحظ أن الإمام علي وكبار الصحابة، رضي الله عنهم، الذين اشتركوا في هذه الأحداث، ورغم ظن كل طرف أنه على الحق، لم يدع أي منهم امتلاكه للحقيقة الكاملة، وبالتالي لم يسفّه الطرف الآخر، فضلاً عن أن يكفره ويخرجه من دائرة الإسلام.

ولم يكن هذا الموقف للإمام علي، رضي الله عنه، حكراً على حربه مع أهل الشام وهم لم يُكَفّروه، بل كان هو ذات الموقف مع الخوارج الذين ادعوا أنهم على الصواب الكامل لدرجة أنهم كفّروا الإمام علي، ومع ذلك ظل يعتبرهم من جماعة المسلمين، ولم يرفع السلاح في وجههم إلا عندما حملوه ضد المسلمين، وقتلوا أحد الصحابة وبقروا بطن زوجته، وفي أثناء المعارك بينه وبينهم سئل عن الخوارج: أكفارٌ هُمْ؟ فقال: من الكفر فروا. وقال عنهم بأنهم «إخواننا بغوا علينا»!

ونستطيع الملاحظة بوضوح أن بعد الشقة بين المسلمين المحدثين آنذاك وبين فقه القرآن، ساعد على ظهور كثير من القيم المنافية للموضوعية، كما حدث من صغار المقاتلين في جيشي معاوية وعلي، رضي الله عنهما، وكما حدث بعد ذلك من بعض الفرق، الذين ابتعدوا كثيراً عن مفردات

---

(١) انظر على سبيل المثال: الصلابي في كتابه: أسمى المطالب، ص٥٧٨-٥٨٠.

الموضوعية واحتكروا فهم الإسلام وادعوا أنهم وحدهم من يمتلك الحقيقة المطلقة، ومن ثم نسجوا حول قادتهم وأئمتهم قصصاً خيالية، ونسبوا إليهم بعض ما يتنافى مع الفكرة الإسلامية وما يتناقض مع مقاصد الدين.

وبسبب غياب التفكير الموضوعي لم يقتصر ظهور المبالغات على طوائف وفرق بعينها وإنما انتقل الأمر إلى كثير من التيارات، حيث ظهر مَنْ بالغ في حب أئمة مذهبه، ومن بالغ في كره أئمة المذاهب الأخرى، ومن تعصب للمذاهب مدعياً أن كل ما فيها صواب؛ وعمل كثير من المتعصبين على تأويل النصوص لتتفق مع ما نسب إلى أئمة بعض المذاهب في بعض المسائل.

وبالجملة، فإن احتكار بعض عوام المسلمين في ذلك الزمن للحقيقة المطلقة، ساهم في تفريق الدين وتمزيق المسلمين إلى شيع متنابذة، وصار هذا الانحراف مدماكاً للتعصب والتشيع الذي ساد في عصور الضعف والتخلف والانحطاط، بل وانحاز إليه بعض علماء المسلمين من المتأخرين الذين اعتادوا على إطلاق العواطف أكثر من إعمال التفكير، وعلى حفظ النصوص أكثر من فهمها!

الأساس الرابع
إتقان فقه الإعذار

لا يمكن أن يكون التفكير موضوعياً ما لم يعمد صاحبه في التعامل مع الآخرين إلى إتقان مفردات الإعذار وتغليب حسن الظن والابتعاد عن سوء الظن، والميل إلى التبين والتثبت والتمحيص، واستحضار الإيجابيات والحسنات بجانب السيئات والسلبيات، بحيث إن السلبيات القليلة تذوب في بحر الإيجابيات.

١- القرآن وصناعة الأعذار:

أ- الله يبحث لعباده عن أعذار:

سجل القرآن نماذج من صناعة الأعذار، حيث عذر الله عباده في مواضع عدة، بحيث إن حضور العذر يخفف من وطأة الجرم، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور:١٥) ، حيث عذر الله المسلمين الذين انخرطوا في الإفك الذي رمى السيدة عائشة، رضي الله عنها، بالزنى قولياً بدون علم، إذ اشتركت ألسنتهم وأفواههم دون قلوبهم، وهذا بالطبع ليس

تبرئة لهم ولكنه تخفيف من جرمهم؛ لأن العقول والقلوب لم تشترك في تدبير هذه الفرية، بل لم تفكر حتى في عواقبها ومآلاتها!

- ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤-٢٢٦)، وهذه الآية تخفف عن الشعراء بحيث تقول: إنهم يقولون ما لا يفعلونه، مثل الحديث عن الخمرة والمعشوقة![١]، وهو أحد معاني هذه الجملة من الآية.

- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦)، حيث اعتبر أن الشرك نتيجة لمقدمة هي عدم العلم، بمعنى أن الشرك في الغالب ليس انحرافاً فطرياً، وأنه لو توفر العلم لهؤلاء ومعرفة الإسلام كما هو لاعتنقوه، ولهذا دعا القرآن لمراعاة عذر هؤلاء بالدعوة الحكيمة والمعاملة الطيبة والمخاطبة بالتي هي أحسن.

ب- نماذج من إعذار الخلق لبعضهم:

وهناك أعذار سجلها القرآن، وردت على ألسنة بعض مخلوقات الله تعالى من الإنس والحيوان، وهي صورة من صور التأصيل لهذه القيمة الخلقية الرائعة، ومن ذلك:

---

(١) قارن هذا المعنى بتفسير محمد بن علي الشوكاني لهذه الآية، فتح القدير، ٤/١٢١.

- إعذار يوسف، عليه السلام، لإخوته بتحميل الشيطان مسؤولية ما فعلوه به: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ (يوسف:١٠٠)؛ ونلاحظ قمة الأدب من يوسف، عليه السلام، عندما لم يشر حتى مجرد إشارة إلى ما فعلوه به، وإنما اكتفى بالقول: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ (يوسف:١٠٠)! رغم أن ما فعله إخوته به لم يكن أمراً عارضاً، بل جاء نتيجة دراسة وتخطيط، وسبقه ترصد وتدبير، ورافقه كذب ومكر وختل.

وكان قد عذر إخوته قبل هذا الموقف بأنهم إنما فعلوا ما فعلوه به بسبب جهلهم، قال تعالى على لسانه ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ (يوسف:٨٩).

- إعذار الخضر لموسى، عليه السلام، في عدم صبره على ما سيرى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ (الكهف:٦٨)، ثم إعطاؤه ثلاث فرص متتابعة حتى قال موسى نفسه: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ (الكهف:٧٦).

- إعذار النملة للنبي سليمان، عليه السلام، وجنوده بإمكانية أن يقوموا بدهس النمل دون شعور منهم نتيجة صغر حجمه وربما انشغال الجيش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النمل:١٨).

قال الإمام الفخر الرازي: «كانت رئاسة تلك النملة على غيرها لم تكن إلا بسبب أنها علمت مسألة واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بأنها قالت: إن سليمان معصوم، والمعصوم لا يجوز منه إيذاء البريء عن الجرم ولكنه لو حطمكم فإنما يصدر ذلك منه على سبيل السهو لأنه لا يعلم حالكم، فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى تنزيه الأنبياء، عليهم السلام، عن المعصية»[1].

ويبدو لي أن هذه النملة كانت فقيهة، حيث حملت الآخرين على حسن الظن وبحثت لهم عن أعذار، فهي لم تتحدث عن سليمان فقط بل عن جنوده، وهم ليسوا معصومين، وفي ذات الوقت لا يجوز للمؤمن أن يؤذي خلق الله - كهؤلاء الجنود- إلا إذا كان لسبب خارج نطاق العلم والإرادة والاستطاعة. يقول السعدي: «وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور»[2].

وسارت السنة النبوية مع القرآن في ذات الاتجاه، الذي يبحث عن المعاذير للآخرين، فعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «... **وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ**

(١) مفاتيح الغيب، ٧/٦٢٢؛ وانظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤/١٣٠-١٣١.

(٢) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط١(بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ٥/٥٦٩.

وَأَرْسَلَ الرُّسُـــلَ»[1]. وصـــح عنه ﷺ قوله: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَـــرَاتِهِمْ إِلا الْحُدُودَ**»[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِـــنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**»[3]، حيث عذر النبي قومه؛ بسبب عدم علمهـــم، داعياً الله أن لا يؤاخذهم بما فعلوه به!

ووصل منهج الإعذار في الإسلام إلى حد الدعوة لدرء الحـــدود قبـــل إيصالها إلى السلطان، وإذا وصلت فإن أصغر شبهة يمكنها أن تسقط الحـــد الشرعي، ودعا الإسلام أبناءه إلى أن يستروا عيوبهم، وأن يـــستر بعـــضهم عيوب بعض، فلا يتعرض لها باللسان، فضلاً عن إيصالها إلى الحكام!

٢- التثبت والتبين والتمحيص:

من مفردات الموضوعية أن يتثبت الإنسان مما يسمع، ويمحص مـــا يقـــرأ، ويراجع نفسه كثيراً قبل أن يبني على ما يسمع أو يقرأ رأياً أو موقفاً.

وقد سجل القرآن لنا نماذج من هذا التثبت والتبين، منها:

- عندما جاء الهدهد من اليمن بنبأ ملكة سبأ وقومها إلى سليمان، عليه السلام، ورغم أن الهدهد عنون خبره بالنبأ وهو الخبر الذي لا يحتمل الشك،

---

(١) أخرجه مسلم، مختصر صحيح مسلم رقم١٤١٦، ص٥٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (رقم٤٣٧٥) كتاب الحدود، النسائي في سننه (رقم٧٢٩٣، ٧٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري، مختصر صحيح البخاري، رقم١٣٨٧، ص٤٠٢.

وأكده بقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، ومع ذلك قال سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (النمل:٢٧)، وكان سليمان قبل هذا قد تفقد الهدهد ولم يجده فتوعده بالقول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢١)، والسلطان المبين هنا هو الحجة الواضحة التي لا تقبل الشك، ولذلك عندما جاءه بخبر ملكة سبأ وتأكد منه عفا عنه.

- قال تعالى على لسان أهل الكهف من الفتية المؤمنين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ (الكهف:١٥)، والسلطان البين هو الحجة الواضحة والدليل الأكيد الذي لا يتزعزع، أي أنهم طالبوهم بالتثبت والتأكد والبحث عن الأدلة والحجج والبراهين.

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤)، فقد ظل إبراهيم يبحث لأبيه عن أعذار ومبررات ويسوق له الأدلة والحجج والبراهين على ألوهية الله، وعندما استنفد ذلك كله وتبينت له حقيقة أبيه وهي العداوة لله بدون عذر أو مبرر تبرأ منه!

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ

ﭐلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ (النساء:٩٤)، وهو أمر واضح للمسلمين بالتبين وعدم التهور.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات:٦)، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح!

٣- إحسان الظن:

إن الأصل في الناس دوماً البراءة والطهارة وحسن النية حتى يثبت العكس، هذا ما أشارت إليه قصة موسى، عليه السلام، مع الخضر، فعندما اتفق موسى على أن يصحب الخضر ويتعلم منه مما علمه الله وتعهد له بأن يصبر مهما سمع أو رأى، مرا على غلام فقتله الخضر، فاستصحب موسى الأصل ولم يستطع الصبر حيث قال له: ﴿ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ ﴾ (الكهف:٧٤)، والشاهد في الآية إطلاق موسى على تلك النفس وصف ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ وهو لا يعرف عن ذلك الفتى شيئاً، لأنه تعامل مع الأصل الذي يولد عليه كل إنسان!

وقال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ (النور:١٢)، وتعني هذه الآية: ظنوا بأمثالهم من المسلمين خيراً، كما ذهب

إلى ذلك الإمام الفخر الرازي[1]، أو رضوا للآخرين ما يرضونه لأنفسهم، فهل لو كانوا مكانهم سيفعلون مثلما نُسب إليهم من انحراف، وهل سيرضيهم أن يتناقل إخوانهم خبراً كاذباً عنهم؟ وفي كلا التفسيرين يتضح وجوب حسن الظن بالآخر والبحث له عن مخارج وأعذار.

وقد اتسم الصحابة الكرام وأئمة المسلمين بالبحث لبعضهم عن أعذار حتى في اجتهادات خطيرة خالفت بعضها ما تعارفت عليه الغالبية من أحكام، ونتيجة هذا الإعذار لم يلجأ أحد من هؤلاء السلف العظام إلى التكفير والتفسيق لمن خالفه في المذهب أو الطائفة فضلاً عمن يخالفه الرأي في ذات المدرسة أو التيار، وغاية ما يمكن فعله في هذا المقام هو تخطيء صاحب الاجتهاد المغاير[2].

وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر[3]. وقد اشتهرت مقولة حجة الإسلام الغزالي والتي نُسبت أيضاً إلى غيره من أعلام المسلمين القدامى، وهي مثال في الإعذار وحسن الظن: «إذا قال الرجل كلمة تحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً وتحتمل الإيمان من وجه واحد، فنحملها على الإيمان»!!

---

(١) مفاتيح الغيب، ١١٥/٩ .

(٢) انظر: بكار، فصول، ص١٦٤-١٦٧.

(٣) الصلابي، عمر بن عبدالعزيز، ص١٤١.

٤- تجفيف منابع سوء الظن:

لسوء الظن منابع كثيرة، أهمها الجهل والقراءة الجزئية للنصوص، ولذلك فإن الرؤية الجزئية كثيراً ما تساهم في تمزيق المجتمع المسلم[١]؛ لأنها تثمر عدداً من الآفات، منها سوء الظن.

ولتجفيف منابع سوء الظن حرم الإسلام تتبع العورات والتجسس والغيبة والنميمة، قال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِه**»[٢]؛ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحجرات:١٢).

ونهى الإسلام عن اللدد في الخصومة، فهي ليست من صفات المسلم: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ (مريم:٩٧)، والألد هو الشديد الخصومة، قال تعالى عن المشركين: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف:٥٨)، وعجَّبَ الله نبيه من هذا الصنف من الناس فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ

(١) انظر: عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي، ص٧٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ (البقرة:٢٠٤)[١].

والفجور في الخصومة جعله النبي ﷺ ربع النفاق كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[٢].

ومن منابع سوء الظن المثالية الزائدة التي تميل إلى قولبة الناس وافتراض أنهم لابد أن يكونوا جميعاً كالصحابة الكرام، وهنا عمل الإسلام على ربط المسلم بواقعه، وتحدث عن طبائع النفس البشرية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، من القنوط والكنود والكفران والطمع والجزع وحب المال والطغيان وحب الدنيا وحب النفس، ووضح الله لنبيه ﷺ أن القليل هم من ينجحون في معركة الابتلاء والعبودية: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣)، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص:٢٤)، ويقاس على الإيمان والكفر بقية الصفات؛ لأنها أولى من ذلك في الندرة، وخاصة ما يتعلق بصفات الفاعلية المؤثرة فإنها نادرة الوجود، كما قال ﷺ: «**إنما النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[٣].

---

(١) راجع معنى «ألد الخصام» لغة وتفسيراً، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٧/٢٣٠-٢٣١.

(٢) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، رقم٣٢، ص١٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

ومن أجل تخفيف منابع سوء الظن وتغليب حسن الظن، حث الإسلام على التخلي عن الذاتية ومحاصرة الأنانية، بطرق عديدة يشتمل عليها منهج العبودية الشامل، وخاصة ما يتعلق بإقامة الشعائر التعبدية، ولكننا نشير هنا إلى طريقة إجرائية وهي وضع الإنسان نفسه مكان الآخرين فيحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء:٩)، ولذلك روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «قال موسى حين كلمه ربه: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذكراً. قال: أي رب فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس»[١]. ومعلوم أن الحكمة هي وضع الشيء في محله، وهذه هي قمة الموضوعية.

ولما كان محمد ﷺ في قمة الحكمة والموضوعية، فقد كان يتعوذ مما لا يحبه لنفسه ولا للناس، فقال ﷺ: « **اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ** »[٢]. ومن حِكَم الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «كفى أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك»! حيث العلاقة وثيقة بين (الذات) و(الآخر)، والتفاعل بينهما قائم بذات المعايير الثابتة!

---

(١) أخرجه أبو خيثمة النسائي، كتاب العلم، ط١(سمنود: مكتبة ابن عباس، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م) رقم٨٧، ص٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود.

٥- تذويب السيئات في بحر الحسنات:

يعترف الإسلام بضعف الإنسان وقصوره ونسيانه، فهو يحمل في تكوينه الفطري استعدادات الفجور بجانب ملكات التقوى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٨)، ولا يخبو هذا الفجور إلا بتكثيف عمليات التزكية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩-١٠)، لكن هذه التزكية لا تخرج هذا الإنسان عن طبيعته بحيث يصبح ملاكاً معصوماً، فلابد أن يخطئ، غير أن التزكية كلما زادت نقصت الأخطاء، وبالطبع أن أخطاء الأبرار تكون غالباً من الصغائر، غير أن الواقع العملي يقول: إن بعض الأبرار قد يقعون في الكبائر، فهل ننسف كل ما فعلوه وقدموه؟!

إن الإسلام وهو دين الموضوعية والعدل والإنصاف لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ومن ثم فإن هذه الأخطاء القليلة يذيبها الإسلام في محيط الصواب الضخم الذي قدمه هؤلاء الأبرار، وهذه مجرد أمثلة:

- ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)، فرغم مشاركة هؤلاء في إشاعة خبر الإفك في السيدة عائشة، رضي الله عنها، إلا أن الله ذكرهم ضمن المهاجرين في سبيل الله، وحث على الإحسان إليهم، مراعاة لسوابقهم التي قدموها.

- عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَد، قَالَ: **انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَة، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَة، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَاب، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ؛ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟** قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلام، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**لَقَدْ صَدَقَكُمْ**»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّه، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِق، قَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1].

يقول ابن القيم: «إن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ من حاطب مكفَّراً بشهوده بدراً، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها، وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها، أعظمُ مما اشتملت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير.

عليه سيئة الجسِّ من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف فأزاله، وأبطل مقتضاه..»[1].

- عن أنس بن مالك ﷺ قال: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ، رَضِي اللَّه عَنْهمَا، بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؛ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا؛ فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[2].

وهكذا يُعلِّم النبي ﷺ أصحابه مرة أخرى أن الماء إذا كثر لم ينجس بالنجاسة القليلة، فإن بحر إحسان الأنصار يذيب أي إساءة يمكن أن تصدر من قبل بعضهم، ومن هنا ربما جاء سكوت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فيما بعد على سعد بن عبادة، رضي الله عنه، الذي لم يبايع الصديق على الخلافة، رغم أن عدم مبايعة هذا القائد الأنصاري يمكن أن تكون بؤرة لفتنة قد تمزق شمل الأمة، مثلما حدث بعد ذلك عندما رفض معاوية مبايعة علي، رضي الله عنهما!

---

(١) زاد المعاد، تحقيق يحي مراد (القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠٥م) ٢/٢١٨؛ وراجع كلامه الرائع في الصفحة ٢١٩.

(٢) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، رقم ١٤٩٠، ص٤٢٩-٤٣٠.

- عن عمر بن الخطاب ﷺ أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّه، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَاب، فَأُتِيَ بِه يَوْمًا فَأَمَرَ بِه فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِه، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[1]. وهذا المنهج الإعذاري من المصطفى ﷺ ذاب ملح «شرب الخمر»، وهو كبيرة، في مياه حب الله ورسوله!. لقد كان ﷺ يلفت أنظار الصحابة دوماً إلى النصف الممتلئ من الكأس، فكيف إذا كان الكأس لم ينقص إلا اليسير منه؟!

- أثناء حروب الردة رُوي أن خالد بن الوليد سمع، رضي الله عنه، من مالك بن نويرة كلاماً فهم منه أنه قد ارتد عن الإسلام، فقتله خالد رغم إنكاره الردة، وتزوج بامرأته أم متمم، فبلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الخبر، فقال لأبي بكر، رضي الله عنه: إنه قد زنى فارجمه، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: ما كنت لأرجمه، تأول فأخطأ، قال: فإنه قد قتل مسلماً فاقتله، قال: ما كنت لأقتله، تأول فأخطأ. قال: فاعزله، قال: ما كنت لأشيم (أغمد) سيفاً سله الله عليهم أبداً»[2].

وكان قد حدث من خالد بن الوليد، رضي الله عنه، في حياة النبي ﷺ قريب من هذا الخطأ[3] بسبب قلة فقهه، لكنه كان قائداً عظيماً ومجاهداً

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود.

(٢) محمد بن يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ٣/٥١.

(٣) عن أخطاء خالد، رضي الله عنه، انظر: محمد ملهي، لمحات من تربية النبي ﷺ لأبي بكر، ص١٤٠-١٤١.

مغواراً، وصاحب مواهب عسكرية لا تبارى، ولابد أن رسول الله ﷺ راعى هذا كله عندما أبقاه على القيادة بعد ذلك الخطأ، ومثله فعل أبو بكر، رضي الله عنه.

- أخرج الترمذي عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَبَّاب، رضي الله عنه، قَالَ: شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَحُثُّ عَلَى جَيْشِ الْعُسْرَةِ، فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ، فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيَّ مِائَتَا بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ، فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيَّ ثَلَاثُ مِائَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْزِلُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: «**مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ، مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ**»(١). فكأن رسول الله ﷺ يقول: إن عثمان بهذا الصنيع قد أوجد لنفسه بحيرة من الحسنات في هذا الموقف فقط، وبالتالي فإن ما يمكن أن يصدر عنه من صغائر واجتهادات خاطئة ستضيع في هذه البحيرة من الحسنات، مثلما ذابت كبيرة التجسس التي قام بها حاطب، رضي الله عنه، في بحيرة ما قدمه يوم بدر من جهاد وتضحية ومخاطرة بالنفس والنفيس.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، وانظر: عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، ط١(القاهرة: دار الفجر للتراث، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص١٢٢.

وقد ثبت بالفعل أن عثمان، رضي الله عنه، عندما خرج عليه الثوار في أواخر خلافته كان قد ذكّرهم بقول الرسول ﷺ في حقه يوم العسرة، بمعنى أنه حتى لو كانت مآخذهم عليه حقيقية فينبغي أن تشفع له تلك السوابق، التي أوردها في محاجته لهم، لكن أولئك الثوار كانوا من الرعاع، إضافة إلى أفراد ممن أوقدوا نار الفتنة!

والناظر في تاريخ علماء المسلمين سيجد أن لبعضهم زلات وهفوات، لكنها تضيع في بحار حسناتهم، يقول ابن القيم: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين»[1].

وورد في كتب الصحاح أن ذا الخويصرة التميمي احتج على قسمة الرسول ﷺ للغنائم، واتهمه بأنه لم يعدل و لم يرد بهذه القسمة وجه الله، ولما أراد عمرﷺ أن يتبعه ويضرب عنقه، نهاه رسول الله ﷺ محتجاً بأن ذلك الخارجي «ذو الخويصرة» يصلي[2]. وهو نفس ما فعله علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مع الخوارج الذين انسلوا من هذا الأصل! وهذا ينقلنا إلى مفردة جديدة وهي عدم غمط المسيئين ما لهم من حسنات.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط١(بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ٣/٢٨٣.

(٢) انظر: الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، رقم١٦٠٢، ص٤٧٦، ٤٧٧؛ المنذري، مختصر صحيح مسلم، رقم٤٩٢، ص١٨٢-١٨٤.

٦- عدم غمط المسيئين حسناتهم:

ولا يكتفي الإسلام بما سبق في مجال فقه الإعذار، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو دين للناس جميعاً، والبشر كلهم من أمة محمد، وغاية ما يذكر في هذا الإطار أن أمة محمد تنقسم إلى قسمين: أمة الإجابة وهم المسلمين وأمة الدعوة وهم بقية البشر.

هذا يعني أن المسلمين معنيون بتوسيع مساحات الخير في أوساط البشر جميعاً، بطرق شتى، ومنها إثابة من أحسن على قدر إحسانه حتى ولو كان كافراً ومعادياً للمسلمين.

ومما يؤصل لهذا الكلام عموم الآيات، التي تحث على جزاء العاملين والمحسنين دون تحديد لهوياتهم. وبجانب هذه الآيات وهي عامة وكثيرة يمكن الاستدلال بما يلي:

- روي أن النبي ﷺ رأى عمه العباس أثناء أسره في بدر في ثوب خلق، فبحث له عن ثوب يناسبه، فأعطاه عبد الله بن أبي ذلك الثوب، وعندما مات بن أبي لم ينس له ﷺ ذلك الجميل رغم أنه زعيم المنافقين، حيث كفنه ﷺ بثوبه[١].

- روي أن عبد الله بن رواحة ﷺ اقترح على رسول الله ﷺ مكافأة واحد من أسرى المشركين يوم بدر، لأنه ذكر الإسلام بخير قبل ذلك[٢].

---

(١) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب الكسوة للأسارى، رقم١٢٧٠.
(٢) انظر: محمد ملهي، لمحات من تربية النبي ﷺ لأبي بكر، ص٧٢.

- عن جبير بن مطعم ﷺ: أن النبي ﷺ قال في أُسَارَى بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[1]. الجدير بالذكر أن المطعم مات على الشرك، لكنه كان قد أجار الرسول ﷺ وحماه عند عودته من الطائف قبل الهجرة، وكان أحد القلائل الذين مزقوا الصحيفة القرشية التي حوصر بموجبها المسلمون مع بني هاشم في شعبهم بمكة قبل الهجرة أيضاً.

- عن حكيم بن حزام ﷺ: أنه أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ، وَحَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ، فَلَمَّا أَسْلَمَ حَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ، وَأَعْتَقَ مِائَةَ رَقَبَةٍ، قَالَ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا يَعْنِي أَتَبَرَّرُ بِهَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ**»[2].

وهذا يعني أن أعمال الخير المرتبطة بالبر، أي بحقوق الناس، تُكتب للكافر إذا أسلم، بل وذهب بعض العلماء إلى أن تلك الأعمال قد تنفعه بالآخرة جزئياً، من خلال تخفيف العذاب، لكن موته على الكفر يجعله مخلداً في النار، واستدلوا بأدلة كثيرة أهمها ما يرتبط بأبي طالب، كما في الحديث التالي:

- عن العباس بن عبد المطلب ﷺ: أنه قال للنبي ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[3].

---

(١) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، رقم١٥٣٦، ص٤٥٠.
(٢) نفسه، رقم١٠٨٨، ص٣١١.
(٣) نفسه، رقم١٥١٠، ص٤٣٥.

فإن وقوف أبي طالب مع النبي ﷺ نفعه، فهو أخف الناس عذاباً في النار، لكن موته على الشرك أدخله النار وخلده فيها؛ لأن الشرك لا يغفر أبداً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء:٤٨).

- «روي أن فرعون قبل أن يدعي الألهية بنى قصراً وأمر أن يكتب «بسم الله» على بابه الخارجي، فلما ادعى الألهية وأرسل إليه موسى، عليه السلام، ودعاه فلم ير به أثر الرشد، قال: إلهي كم أدعوه ولا أرى به خيراً، فقال تعالى: يا موسى لعلك تريد إهلاكه، أنت تنظر إلى كفره، وأنا أنظر إلى ما كتبه على بابه»[1].

وهكذا فإن مفردات فقه الإعذار في الإسلام كثيرة، وكفيلة لو فُقهت بأن تنشر السلام والتسامح والمودة بين الناس عموماً والمسلمين خصوصاً.

الجدير بالذكر أن الله تعالى خلق الإنسان للابتلاء: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ (الملك:٢)؛ والابتلاء يمكن أن يتحقق خلال سنوات قليلة من عمر الإنسان بعد البلوغ، لكن الله يطيل أعمار الناس كنوع من الإعذار، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**»[2].

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٣/٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق.

الأساس الخامس

تشجيع الاعتراف بالجهل

لا يمكن أن يقوم مبنى التفكير الموضوعي ما لم يكن الإنصاف من الذات موجوداً، بحيث يتواضع من يعلم، وتتوافر له مفردات المنهج العلمي في القرآن والسنة وعند الصحابة، فيعرف أن العلم الخشية، وأن من خشية الله أن يعرف أن علمه محدود وأن مسائل كثيرة في حياته ستعرض له وهو لا يعرفها، وأن رأس العلم أن يقول «لا أدري» فيما لا يدري.

١- القرآن والتأسيس للمنهج العلمي:

توجد مئات الآيات في القرآن ذات صلة بالعلم من نواحيه كلها، وما يهمنا هنا هو إيراد نماذج من الآيات التي تمثل لبنات للمنهج العلمي، مثل:

- تحريم القول بدون علم:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣)، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا

رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (النحل:٥٦)، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:٣٦).

- وجوب المجادلة بعلم أو الكف عنها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٦٥-٦٦)، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الحج:٣-٤)، وقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ (النساء:١٥٧).

- تحريم الظن والاتباع بدون علم:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦)، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأنعام:٥٠)، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨).

- الأصل في الإنسان عدم الدراية:

لقد نفى القرآن دراية الإنسان في كثير من القضايا من عالم الشهادة، فكيف بعالم الغيب، والذي علّم الإنسان العلم المحدود الذي يحمله هو الله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق:٥)، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (الرحمن:١-٢)، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة:٣١-٣٢).

- علم المخلوق نسبي:

لم تستح الملائكة في الآية السابقة من اعترافها بجهلها، لأن صاحب العلم المطلق هو الله، ومن ثم فإن القرآن يعلمنا أن العلم البشري نسبي: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ (يوسف:٧٦).

وهناك آيات كثيرة في فضل العلم والعلماء ومكانتهم، وفي الفكر والتفكير واستحضار جهاز الوعي في الإنسان والدعوة لتفعيل حواسه كلها، وفي الإشارة إلى آيات الأنفس والآفاق والحث على قراءتها بوعي، بحيث يستفيد منها الإنسان استهداء واستثماراً.

٢- القول بدون علم كالقتل:

عن جابر ﷺ قال: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ -أَوْ يَعْصِبَ- عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**»(١).

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يكن يغضب إلا عندما تُنتهك محارم الله، و لم يثبت أنه دعا على مسلم، وفي هذه الواقعة جمع بين الغضب الشديد والدعاء «قتلهم الله» على من أفتوا بدون علم حتى قتلوا صاحبهم بجهلهم. والجهل لا يقتل في مثل هذا الموضع فقط، بل يقتل في مواضع كثيرة جداً، حيث يقتل القوام الروحي للإنسان إذا تربى بطريقة خاطئة، حتى ولو امتلأ إخلاصاً، فإنه بدون علم صحيح سيرتكب الكثير من الحماقات والجنايات كما فعل الخوارج الذين لم يتفقهوا في الدين.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى**

(١) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الطهارة.

إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

ووردت كذلك أحاديث حول من يدعون العلم والفقه والقرآن وأهم في النار[2].

٣- الصحابة وعلم «لا أدري»:

اتسم عموم الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، بالحرص على تحصيل العلم، العلم الذي جعلهم يخشون الله ويتواضعون للناس، وعرفهم قدر أنفسهم، فعرفوا أن علمهم نسبي، وأن هناك الكثير من المساحات الواسعة التي يجهلونها.

ولهذا اشتهر الصحابة بكراهة القول بالرأي بدون علم، وكانوا شديدي الحرص على التفريق بين مراد الله الذي لا يعرفه إلا هو، وبين اجتهاداتهم الشخصية التي لا تعبر إلا عن ذواتهم[3].

ولما كان أعلم الصحابة أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقد كانا يتهيبان الإفتاء مخافة أن يقعا فيما لا يعلما، واشتهر عنهما هذا الخوف أكثر من غيرهما، ورويت عنهما حكايات ومقولات كثيرة في هذا الشأن[4].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، رقم١٠٠، ١/٢٣٤؛ مسلم، كتاب العلم، ١٦/١٧٠.
(٢) انظر: الحافظ المنذري، صحيح الترغيب والترهيب، ص٥٨-٥٩.
(٣) انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين، ١/٤٦، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٦٥، ٦٨؛ إعلام، ٢/١١٨-١٢٠.
(٤) انظر: نفس المرجع، ١/٦٣-٦٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨٦؛ محمد ملهي، لمحات، ص١٠٦.

وفي ذات السياق روى ابن القيم بسنده أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: «أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم»[١].

وقد اشتهر عن الصحابة تدافعهم بالفتوى، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركتُ عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، أراه قال في المسجد، فما كان منهم مُحدِّث إلا وَدَّ أنْ أخاه كفاه الحديث، ولا مفت إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا. وورد عنه أيضاً قوله: «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه، ولا يُحدِّث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه»[٢].

وقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ يوماً الصحابة عن معنى قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ﴾ (البقرة:٢٦٦)، فلم يقولوا جميعاً سوى: الله أعلم. وعندما حثهم -عمر- على المحاولة أجاب عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، نصف إجابة على حذر شديد[٣].

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على جلالة قدره ومكانته العلمية التي أهلته لأن يوافقه القرآن في أكثر من عشرين موضعاً، كان

---

(١) إعلام، ٦٣/١.

(٢) ابن القيم، إعلام، ٤٦/١-٤٧؛ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٩٢/١؛ ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٠- ١٢١؛ أبو خيثمة النسائي، كتاب العلم، رقم٢٢، ص٤٥.

(٣) انظر: ابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: سيد إبراهيم (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م) ص٣٥٣.

لا يستغني بعلمه، وكان يستشير الصحابة في مسائل كثيرة، وكانت تحدث المسألة الواحدة فيجمع لها أصحاب بدر.

ومما اشتهر عن عمر، رضي الله عنه، في هذا السياق استشارته للإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في عدد من المسائل القضائية والفقهية، آخذاً برأيه وفتياه، مع أنه كان أصغر سناً منه وأقل علماً، بل اشتهرت مقولته عنه: «لولا علي لهلك عمر»، و«أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن»(١). وكان كثيراً ما يأخذ بآراء وفتاوى حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، رغم أنه في سن أولاده.

ومن وصية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ لأولاده: احفظوا عني خمساً، فلو ركبتم الإبل في طلبهن لأنضيتموهن (أَذْبَلْتُمُوهن) قبل أن تدركوهن: لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحي إذا لم يعلم أن يتعلم، ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. وفي رواية قال: وأبردها على كبدي إذا سُئلتُ عما لا أعلم أن أقول: الله أعلم(٢).

ورُوي عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: « **مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لا يَعْلَمُ:**

---

(١) انظر: علي الصلابي، أسمى المطالب، ص١٦٨-١٧٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٤٨؛ ابن القيم، إعلام، ٢/١١٨؛ الصلابي، أسمى المطالب، ص٢٤٣، ٢٥٨؛ مصطفى السباعي، عظماؤنا في التاريخ، ص١٠٣ .

لا أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّــه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦)» (١).

وعن مسروق قال: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ جُلُوسًا، وَهُوَ مُــضْطَجِعٌ بَيْنَنَــا، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْــوَابِ كِنْــدَةَ يَقُــصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ، وَيَأْخُذُ الْمُــؤْمِنِينَ مِنْــهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ، وَجَلَسَ وَهُوَ غَضْبَانُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَــمُ، فَإِنَّــهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَــزَّ وَجَــلَّ قَــالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦) (٢).

وكان عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، من أشد الصحابة حذراً في الفتوى، لا يفتي حتى يتفهم الأمر جيداً، فقد حدث أن سأله رجــل عــن مسألة، فطأطأ ابن عمر رأسه و لم يجبه، حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته، فقال الرجل له: يرحمك الله؛ أما سمعت مسألتي؟ قال: بلى، ولكنكم كأنكم ترون أن الله ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا يرحمك الله حتى نتفهم في مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا وإلا أعلمناك(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، رقم٤٧٧٤، أبو خيثمة النسائي، كتاب العلم، رقم٥١، ص٦٧؛ ابن القيم، إعلام، ٢/ص١١٩ .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) محمد رواس قلعجي، موسوعة فقه عبد الله بن عمر، ص٢٢.

«وكان فرحه بالمسألة التي لا يعلم جوابها عندما يقول: لا أعلم، أكبر من فرحه بإجابته عن المسألة التي يعرف جوابها، فقد سأل ابن عمر رجل عن مسألة، فقال ابن عمر: لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نِعْمَ ما قال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به .

«ومن هنا كانت المسائل التي يردها دون جواب عليها أكثر من المسائل التي يجيب عليها. قال نافع: كان ابن عباس وابن عمر يجلسان للناس عند مقدم الحاج، فكنت أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً، فكان ابن عباس يجيب ويفتي في كل ما سئل عنه، وكان ابن عمر يردُّ أكثر مما يُفتي»[1].

وعن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع ابن عمر نمشي، فلحقنا أعرابي فقال: أنت عبد الله بن عمر؟ قال: نعم . قال: سألت عنك فدللت عليك، فأخبرني أترث العمة؟ قال: لا أدري، قال: أنت لا تدري؟ قال: نعم، اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم، فلما أدبر قَبَّلَ يديه وقال: نعما ما قال أبو عبد الرحمن، سئل عما لا يدري فقال: لا أدري[2].

وعن أبي المهلب قال: سمعت أبا موسى الأشعري على منبره وهو يقول: من علّمه الله علماً فليُعلّمه، ولا يقولن ما ليس له به علم، فيكون من المتكلفين ويمرق من الدين[3].

---

(١) نفس المرجع، ص٢٢.

(٢) ابن القيم، إعلام، ٢/١١٩.

(٣) ابن القيم، إعلام، ١/٦٨؛ طبقات ابن سعد، ٤/١٠٧، نقلاً عن الصلابي، أسمى المطالب، ص٥٩٠.

٤- سلف الأمة والعلم بـ«لا أدري»:

وفي عهد التابعين بدأ بالظهور من يقولون على الله بغير علم، غير متورعين عن الفتوى في كل شيء، لكن العلماء الكبار ظلوا يسيرون على منهج سلفهم من الصحابة، وصار أعلام التابعين سلفاً ومثلاً وقدوة لمن جاء بعدهم من الأئمة والعلماء سيراً في ذات الطريق.

روي عن الإمام مالك قوله: أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن أبي عبد الرحمن فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه. فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. قال ربيعة: ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالسجن من السُّرَّاق[1].

وقد ظل التابعون ومن جاء بعدهم من الأئمة والعلماء على حذرهم الشديد من الفتيا ذامين للرأي الذي لا يقوم على علم، دارئين الفتوى بغيرهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، متذرعين عن عدم الفتوى في أحيان كثير ة بجهلهم[2].

وسنسطر في هذه العجالة نماذج من آراء ومواقف علماء المسلمين من التابعين ومن جاء بعدهم، الذين أسسوا علم المعرفة بجهل أنفسهم وأبدعوا فيه أيما إبداع، فكانوا قمماً في الموضوعية والإنصاف والتروي.

---

(١) ابن القيم، إعلام، ٤/٢٠٧.

(٢) انظر: ابن القيم، إعلام، ١/٤٨، ٧٨-٨٤؛ أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٨٠-٨٢.

أ- عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه:

اشترط عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، في القاضي خمس خصال، حيث قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة، أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم[1].

ب- الحسن البصري:

كان الحسن البصري، رحمه الله، سيد التابعين كثيراً ما يقول: لا أدري. ومن طريف ما تعرض له في هذا السياق ما أورده ابن الجوزي من أنه -أي الحسن- سئل يوماً: لأي شيء استحب صوم أيام البيض؟ فقال: لا أدري، فقال إعرابي في حلقته: لكني أدري. قال: وما هو؟ قال: لأن القمر لا ينكسف إلا فيهن فأحب الله عز وجل أن لا يحدث في السماء أمر إلا حدثت له في الأرض عبادة[2]. ومن المشهور أن تأسيس فرقة المعتزلة جاء على إثر سؤال طُرح على الحسن عن حكم مرتكب الكبيرة، فأطرق ملياً قبل أن يجيب، فتكلم أحد تلاميذه، وهو واصل بن عطاء فقال: أرى أنه ليس بمسلم ولا كافر، بل هو بمنزلة بين المنزلتين، ثم قام من مجلس الحسن أو حلقته، فقال عنه الحسن: اعتزلنا واصل، فأطلق على أتباعه المعتزلة[3].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/٣٦٩، نقلاً عن الصلابي، عمر بن عبدالعزيز، ص٢٥٩؛ وانظر: ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبدالعزيز، ص١٨٦.

(٢) كتاب الأذكياء، ط٥ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) ص٩٢.

(٣) أبو الفتح الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، عرض: حسين جمعة، ط١(دمشق، بيروت: دار دانية، ١٩٩٠م) ص٢٢-٢٣.

ج- عامر الشعبي:

روي عن الشعبي عشرات المواقف التي سئل فيها بأسئلة شتى فكان جوابه فيها «لا أدري»، ومما يروى عنه أنه قال لداود الأودي: احفظ عني ثلاثاً لها بيان، إذا سُئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك «أرأيت»، فإن الله قال في كتابه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان:٤٣) ... والثانية: إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئاً بشيء، فربما حرمت حلالاً أو حللت حراماً، وإذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم، وأنا شريكك. وسئل ذات يوم عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: فقس لنا برأيك، فقال: أخاف أن تزل قدمي[1]. وسئل عن شيء فقال: لا أدري. فقيل له: أما تستحي من قولك: «لا أدري» وأنت فقيه العراق؟ قال: لكن الملائكة لم تستح حيث قالت: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ (البقرة:٣٢)[2].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٩) اختلف المفسرون حول المقصود بالمحروم، فقال الإمام الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ[3].

---

(١) ابن القيم، إعلام، ٢٢٥/١-٢٢٧.

(٢) ابن الصلاح، أدب الفتوى، ص٢٩، نقلاً عن: عبد العزيز بن إبراهيم الشبل، من ينقذنا من المفتي المتساهل، مجلة البيان، لندن، العدد٢١٢، ربيع ثاني١٤٢٦هـ/ مايو- يونيو٢٠٠٥م، ص٩.

(٣) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، ٨٥/٥.

وكان الشعبي إذا سئل عن مسألة معضلة قال: زَبَّاء ذات وَبَر، لو سئل عنها أصحاب رسول الله لأعضلت بهم، وكان يعتبر أن «لا أدري» نصف العلم(١).

د- القاسم بن محمد:

روي عنه قوله: لأن يعيش الرجل جاهلاً خير له من أن يفتي بما لا يعلم(٢). وكان يقول: إنكم تسألوننا عما لا نعلم، والله لو علمناه ما كتمناه، ولا استحللنا كتمانه(٣).

وقال أيضاً: من إكرام الرجل نفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه، وقال: يا أهل العراق، والله لا نعلم كثيراً مما تسألوننا عنه، ولأن يعيش الرجل جاهلاً إلا أن يعلم ما فرض الله عليه خير له من أن يقول على الله ورسوله ما لا يعلم(٤).

هـ- الإمام مالك بن أنس:

قال مالك: ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقيل له: يا أبا عبد الله فلو نَهَوْك؟ قال: كنتُ أنتهي(٥) وقد أورد ابن قيم

---

(١) ابن القيم، إعلام، ٢/١١٩؛ ابن منظور، لسان العرب، ٣/١٦٥.

(٢) أبو خيثمة النسائي، كتاب العلم، رقم٩١، ص١٠٤.

(٣) نفسه، رقم١٤٠، ص١٤١.

(٤) ابن القيم، إعلام، ٢/١١٩.

(٥) نفس المرجع، ٢/١٢٠.

الجوزية مجموعة من الأقوال والحكايات ذات الصلة بهذا الموضوع نسبها إلى الإمام مالك . قال مالك: من فقه العالم أن يقول: «لا أعلم» فإنه عسى أن يتهيأ له الخير . وقال: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده «لا أدري»، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه. وقال الشافعي: سمعت مالكاً يقول: سمعت ابن عجلان يقول: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله.. وذكره ابن عجلان عن ابن عباس.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: جاء رجل إلى مالك، فسأله عن شيء، فمكث أياماً ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الله، إني أريد الخروج، فأطرق طويلاً ورفع رأسه فقال: ما شاء الله! يا هذا إني أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك. وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخرق. قال: وكان يقال: التأني من الله والعجلة من الشيطان.

وقال ابن وهب: قال لي مالك - وهو ينكر كثرة الجواب في المسائل-: يا عبد الله ما علمتَ فقل، وإياك أن تقلد الناس قلادة سوء . وقال مالك: حدثني ربيعة قال: قال لي أبو خلدة - وكان نعم القاضي-: يا ربيعة، أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا يكن همك أن تتخلص مما سألك عنه[١].

وروي عنه أن رجلاً سأله عن مسألة فقال: لا أدري . فقال: سافرت البلدان إليك. فقال: ارجع إلى بلدك، وقل: سألت مالكاً، فقال: لا أدري[٢].

---

(١) نفسه، ٢/١١٩-١٢٠.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص٢٩٢.

وكان يكثر من قــول «لا أدري»، وسئل عن ثمان وأربعين مــسألة، فقال في اثنتــين وثلاثــين منهــا: لا أدري. وسئــل عن مســألة فقال: لا أدري، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف. وقال: إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيهــا رأي إلى الآن(١).

وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة قــال للــسائل: انصرف حتى انظر فيها، فينصرف ويتردد فيها، فقلنا له في ذلــك فبكــى، وقال: إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم(٢).

وذكر سحنون، مدون الفقه المالكي، أن مسألة عرضت لشيخه الإمام مالك، فقــال له: اليوم لي عشرون سنة وأنا أفكر في هــذه المــسألة! وفي مرض موته غلب البكاء مــالكاً، وعنــدما سئل عن سبب بكائه، كــان رده: وما لي لا أبكي؟ ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لو وددت أني ضُــربت بكل مسألة أفتيت فيها سوطاً، وقد كان لي السعي في كل ما سبقت إليــه. وليتني لم أفتِ بالرأي(٣).

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ١/١١-١٢؛ نقلاً عن: عبد العزيز إبراهيم الشبل، من ينقذنا من المفتي المتساهل، مجلة البيان، لندن، العدد٢١٢، ربيــع ثــاني١٤٢٦هـــ/ مايو- يونيو٢٠٠٥م، ص٩.

(٢) نفسه، ص١١٠.

(٣) فهمي هويدي، القرآن والسلطان، ص٢٠١.

و- أحمد بن حنبل:

قال أبو داود في مسائله: ما أُحصي ما سمعت أحمد سُئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول: لا أدري . قال: وسمعته يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتياً منه، كان أهون عليه أن يقول: لا أدري. وقال عبد الله ابنه: كنت أسمع أبي كثيراً يُسأل عن المسائل فيقول: لا أدري. ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف، وكثيراً ما كان يقول: سل غيري، فإن قيل له: من نسأل؟ قال: سلوا العلماء، ولا يكاد يسمي رجلاً بعينه. قال: وسمعت أبي يقول: كان ابن عيينة لا يفتي في الطلاق، ويقول: من يُحسن هذا؟[1].

وكان أحمد بن حنبل يقول عن نفسه: ربما مكثت في المسألة سنين قبل أن أعتقد فيها شيئاً. وهو الإمام الذي قيل: إنه صنف المسند من بين ثلاثة أرباع المليون حديث منسوب إلى النبي ﷺ، هو الذي يجيب على أكثر سائليه برد العالم الذي يخشى الله حق خشيته، ويقول بتواضع جم: «لا أدري»[2].

وقال لابن حنبل رجلٌ يوماً: إني حلفت ولا أدري كيف حلفت. قال: ليتك إذ دريت كيف حلفت، دريتُ أنا كيف أفتيك[3].

---

(١) ابن القيم، إعلام، ١/٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٠-٢٠١.

(٣) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢١.

ز- علماء السلف كلهم:

وهكذا كان ديدن أغلب علماء السلف العاملين، ومنهم أبو حنيفة والشافعي والليث بن سعد والأوزاعي وغيرهم.

جاء رجل إلى إبراهيم النخعي فسأله عن مسألة، فقال له: ما وجدت من تسأله غيري؟[(١)] وروي عن ابن سيرين قوله: لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول ما لا يعلم. وقال أبو الحصين الأسدي: إن أحدهم ليفتي في المسألة لو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر. وقال ابن جبير: ويل لمن يقول لما لا يعلم: إني أعلم[(٢)].

وسئل يحيى بن معين- وهو الإمام في الحديث- : هل يجوز للحائض أن تغسل الموتى، فلم يستطع أن يجيب[(٣)].

وسئل الإمام أبو الحسن الماوردي، وهو من أكابر علماء الأمة، وكان قاضي المذهب الشافعي في بغداد، سئل عن أربع مسائل في البيوع فلم يجب[(٤)].

وذكر ابن الجوزي أنه استفاد من الشيخ أبي منصور الجواليقي، الذي وصفه بأنه كان شديد التحري وكثير التوقف فيما يقول ويفتي، وأنه

---

(١) نفس المرجع، ص١٢١.

(٢) ابن القيم، إعلام، ٢/١١٩.

(٣) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص٥٤٩.

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٧٩؛ محمد أبو فارس، القاضي أبو يعلى الغراء وكتابه الأحكام السلطانية، ص٥١٨- ٥١٩ (الهامش).

ربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن[1]. وأورد عن بعض مشايخه أنه أفتى رجلاً من قرية بينه وبينها أربعة فراسخ، فلما ذهب الرجل تفكر فعلم أنه أخطأ، فمشى إليه فأعلمه أنه أخطأ، فكان بعد ذلك إذا سئل عن مسألة توقف وقال: ما فيَّ قوة أمشي أربعة فراسخ[2].

وذهب ابن الجوزي إلى أن من «تلبيس إبليس» على بعض العلماء إحساسهم بالأنفة عندما يُسألون عن شيء لا يعرفونه، فيستحون من قول «لا أدري»[3].

وكان العالم الصوفي المشهور ابن السماك يتكلم على الناس في جامع المدينة فكتب إليه أحدهم رقعة: ما يقول السادة الفقهاء في رجل مات وخلف كذا وكذا، ففتحها وتأملها، فقرأ ما فيها، فلما رآها في الفرائض - وهو لا يحسنها- رماها من يده وقال: أنا أتكلم على مذاهب قوم إذا ماتوا لم يُخَلِّفُوا شيئاً[4].

وكان لإبراهيم بن طهمان جراية من بيت المال، فسئل عن مسألة في مجلس الخليفة فقال: لا أدري. فقالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا

---

(١) صيد الخاطر، ص٢١٧-٢١٨.

(٢) ابن الجوزي، تعظيم الفتيا، ص٩٢؛ نقلاً عن: عبد العزيز بن إبراهيم الشبل، مرجع سابق، ص١٠.

(٣) تلبيس إبليس، ص١١٩-١٢٠.

(٤) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٢٢ (بتصرف).

ولا تحسن مسألة، فقال: إنما آخذ على ما أحسن ولو أخذت على ما لا أحسن لفني بيت المال، ولا يفني ما لا أحسن[1].

وجاء رجل إلى الأعمش فقال: يا أبا محمد اكتريت حماراً بنصف درهم فأتيتك لأسألك عن حديث كذا وكذا، فقال: اكترِ بالنصف الآخر وارجع[2].

ووصف ابن قدامة المقدسي علماء الآخرة بأنهم لا يتسرعون في الفتوى، ولا يفتون إلا بما يتيقنون صحته، وذكر أن السلف كانوا يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول، ونقل أقوالاً للسلف تؤكد ما قال[3].

وفي محاضرة لأمين الريحاني بنيويورك ألقاها سنة ١٩٠٠ روى من التراث الإسلامي ما يلي:

«قال الزعفراني: كنت يوماً بحضرة أبي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال: لا أدري. فقيل: وكيف لا تدري وإليك تُضرب أكباد الإبل؟ فقال: لو كان لأمك تمر بقدر ما لا أدري لاستغنت. وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: فبأي شيء تأخذ رزق السلطان؟ فقال: لأقول فيما لا أدري لا أدري[4].

وروي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قوله: إذا ترك العالم (لا أدري) أُصيبت مقاتله. وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتوى أو يقول شيئاً

(١) المرجع السابق، ص١٣١.
(٢) نفسه، ص٧٢.
(٣) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٥-٢٦.
(٤) مجلة العربي، الكويت، العدد٤٤٢، سبتمبر ١٩٩٥م، ص١٨.

إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني. وقال الإمام أحمد: ليتق الله عبد ولينظر ما يقول وما يتكلم، فإنه مسؤول. وقال سفيان الثوري: لقد كان الرجل يُستفتى فيفتي وهو يرعد[1].

وعن مالك، رحمه الله، أنه كان إذا سئل عن مسألة كأنه واقف بين الجنة والنار. وقال بعض أهل العلم لبعض المفتين: إذا سُئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن تخليص نفسك أولاً[2].

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة، رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه[3].

وأورد حجة الإسلام الغزالي خبراً عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه: جُنة العالم لا أدري، فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله.

وقال إبراهيم بن أدهم: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول: انظروا إلى هذا سكوته أشد عليّ من كلامه.

---

(١) مجلة البيان، لندن، العدد ٩١، ص٣٨-٤٠.

(٢) مجلة البيان، لندن، العدد ٧٩، ص١٨.

(٣) أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، تقديم: عامر النجار، تحقيق: محمد عبدالملك الزعبي (القاهرة: دار المنار، د.ت.) ١/١٢١.

وكان إبراهيم التيمي إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول: لم تجدوا غيري حتى احتجتم إليّ. وكان ابن عمر، رضي الله عنهما، يُسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع. وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة. وكان في الفقهاء من يقول «لا أدري» أكثر ممن يقول «أدري»، منهم سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وأحمد ابن حنبل، والفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث[1].

وسأل أبو عون رجلاً في مسألة، فقال له: على الخبير بها سقطت. لقد سألتُ عنها أبي، فقال لي: سألت عنها جدك، فقال: لا أدري[2]. وسُئل خطيب وهو يخطب عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: ليس المنبر موضع جهل، فقال إنما علوت بقدر علمي، ولو علوتُ بقدر جهلي لبلغتُ السماء[3].

ورغم إكثار الإمام الشعبي من قول «لا أدري»، فقد وقعت له حادثة طريفة في هذا السياق، حيث تكلم شاب يوماً عنده، فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا. فقال الشاب: كل العلم سمعت؟ قال: لا. قال: فشطره؟ قال: لا. قال: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي[4].

إن معرفة العلماء بجهلهم خلق إنساني، ظهر حتى عند عمالقة العلم الغربيين وإن لم يصبح هذا الأمر ظاهرة كما عند علماء المسلمين. فهذا

---

(١) المرجع نفسه، ١/١٣٦-١٣٧ (بتصرف).
(٢) مجلة العربي، الكويت، العدد ٣٦٠، نوفمبر ١٩٨٨، ص٦٦.
(٣) مجلة المجتمع، الكويت، العدد٤٨٤، ٢٦رجب ١٤٠٠- ١٠ يونيو ١٩٨٠م، ص٣٧.
(٤) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٣١.

الفيلسوف اليوناني الشهير «سقراط» يُسأل يوماً: لماذا اختاروك أحكم الحكماء في اليونان؟ فأجاب: ربما لأنني الرجل الوحيد الذي يعرف أنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق[1]. وهذا صاحب النظرية النسبية في العصر الحديث «إينشتين» يقف يوماً عند درج صغير في أسفل مكتبته ويقول: إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي. ويعلق الشيخ محمد الغزالي على ذلك فيقول: ولو أنصف لقال: إنه أقل من هذه النسبة. فإنا لا نعلم أي شيء هو[2].

٥- علماء العصر الحديث والحث على «لا أدري»:

لم تنقطع مسيرة «لا أدري» في هذا العصر، وإن كان الادعاء قد عم، والجهل قد خيم، وأعشار العلماء قد احتلوا المقاعد واعتلوا المنابر وارتفعت أصواتهم تقول جهلاً، وتشيع فكراً منحرفاً وفقهاً جامداً، وتؤصل لصور من التدين المنقوص والمغشوش.

ومع ذلك فإن هناك عدداً كبيراً من العلماء، الذين أوصلوا أنفسهم بذلك المركب العلمي الذي يحترم نفسه ولا يجد غضاضة في أن يعترف بجهله!

---

(١) مجلة الحوادث، لندن، العدد٢٠٨٩، ١٥نوفمبر ١٩٩٦م، ص٧٠.

(٢) محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص٤٣.

٦- «لا أدري» قمة العلم والإنصاف:

من خلال الساحة الفكرية التي مررنا فيها على نماذج من أقوال ومواقف بعض الصحابة الكبار وكبار التابعين والأئمة والعلماء نستطيع الجزم بأن الاعتراف بالجهل من خصائص العلماء الأصلاء، بينما أنصاف وأرباع وأعشار العلماء لا يتورعون أبداً عن إبداء الآراء وإطلاق الفتاوى في كل مجالات وميادين الحياة، في الفكر والسياسة والفقه والاقتصاد والثقافة والأدب والفن، وهلم جراً.

يقول د. القرضاوي: «والحق أن نصف العلم يضر أكثر من الجهل الكلي، مع الاعتراف بأن هذا جهل بسيط وهذا جهل مركب، وهو جاهل من حيث لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري»[١]. وأكد الشيخ حسن أيوب هذا المعنى بقوله: «لذلك أرى مع من رأى أن نصف العلم يكون أحياناً أضر من الجهل المطلق؛ لأن الجاهل يؤمن بجهل نفسه فيسأل، وهذا يغتر ببضاعته القليلة فيضر نفسه وغيره»[٢].

وقد ثبت تاريخياً وواقعياً أن «كثرة» الإفتاء تدل على «قلة» العلم. قال القاضي سحنون (ت٢٤٠هـ): «أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه»[٣].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص٦٣.

(٢) السلوك الاجتماعي، ط٤ (الكويت: دار الندوة الجديدة) ص٤١.

(٣) ابن القيم، إعلام، ٢/٣٤.

وقال الشاعر العربي:

مثل الجاهل في إعجـــابه   مثل الناظر من أعـــلى الجبل
يحسب الناس صغاراً وهو   في أعين الناس صغيراً لم يزل.

وقال الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـــ-١٢١٠م):

العلم للرحمن جل جلاله   وسواه في جهالاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم؟ وإنما   يسعى ليعلم أنه لا يعلم(١)

وقال الإمام الشافعي شعراً في ذات السياق:

كلما أدبني الدهــــ   ــــر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علماً   زادني علـــماً بجهـــلي.

هذا لأن العلم الحقيقي يورث الخشية من الله، والورع عـــن محارمــه، ومنها الخوف الشديد من القول عليه بغير علم.

عن مسروق قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِـــالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ»(٢)؛ وقد اشتـــهرت مقولة الإمام سفيان الثـــوري: «إنما العلم الخشية»، انطلاقاً من قوله تعـــالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر:٢٨).

---

(١) القرضاوي، العقل والعلم في القرآن، ص١٧٥.
(٢) أخرجه الدارمي، كتاب المقدمة.

يقول ابن الجوزي: «رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذلك يورث الخشية والخوف، ويرى المنة للمنعم بالعلم وقوة الحجة على المتعلم»(١).

وعن يحيى بن جعدة قال: كان ناس يستمعون حديثه، فيقول: «هذا خير لكم وشر لي»(٢).

وعن الحسن قال: «إن كان الرجل ليجلس مع القوم فيرون أن به عيًّا وما به من عيّ، إنه لفقيه مسلم»(٣).

ولما كان الإمام الشافعي أحد القمم العالية جداً في سماء العلم على مستوى المسلمين وعلى مستوى العالم كله، فقد اعترف بجهله بعدد من المسائل، وعقب على ذلك الإمام الرازي في المحصول فقال: «هذا يدل على كمال منصبه في العلم والدين. أما العلم، فلأن كل من كان أغوص نظراً، وأدق فكراً، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع، وأتم وقوفاً على شرائط الأدلة، كانت الإشكالات عنده أكثر. أما المصرّ على الوجه الواحد- طول عمره- في المباحث الظنية، بحيث لا يتردد فيه، فذلك لا يكون إلا من جمود

---

(١) صيد الخاطر، ص٥٥٣.

(٢) المرجع السابق، رقم٢٠، ص٤٤.

(٣) نفسه، رقم٢١، ص٤٤.

الطبع، وقلة الفطنة، وكلال القريحة، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات»[1].

ونختتم هذه الفقرة بكلام للدكتور يوسف القرضاوي حول أزمة أمتنا المعاصرة ذات الصلة بموضوعنا هذا، حيث يقول: «ولقد ابتلينا في عصرنا ببعض المجترئين، الذين استباحوا حمى الشريعة، وأمسوا يحلّلون ويحرمون، ويوجبون ويسقطون، ويُبدِّعون ويُفسِّقون، بل يُكفِّرون، لمجرد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفي بعض العلوم، و لم يعيشوا في جو العلم، ولا طلبوه من شيوخه، و لم يتقنوا أدواته، و لم يملكوا مفاتيحه، ومع هذا أفتوا في أعوص المسائل، وحكموا في أغمض القضايا، واعترضوا على أكابر العلماء، وطعنوا في أئمة المذاهب، وساووا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين، وقال قائلهم: هم رجال ونحن رجال!. وهذا هو الذي يؤذن بضياع الدين، وخراب الدنيا»[2].

---

(١) يوسف القرضاوي، نحو وحدة فكرية، ص٣٢.

(٢) الحياة الربانية والعلم، ص١٣٦-١٣٧.

الأساس السادس

الإحساس بالمسؤولية الفردية ونقد الذات

إن أحد أسس التفكير الموضوعي ومنابعه الدفاقة شعور الفرد أو الكيان المعني بالمسؤولية، والتفاته إلى العوامل الداخلية، وانشغاله بنقد الذات وإصلاح عيوبها، وتغطية ثغورها وسد ثغراتها.

ولأن الإسلام دين الموضوعية والإنصاف، فإنه يمتلئ بمفردات التربية الذاتية والمنهج النقدي، ويعيب على أصحاب المنهج التبريري.

سنحاول توضيح هذا الأمر بإيجاز، من خلال النقاط الآتية:

١- طبيعة التركيبة (الآدمية) توجب النقد الذاتي:

يمتاز الإنسان في خلقته الفطرية بطبائع تجعله مليئاً بالعيوب وأوجه الضعف والقصور، مما يوجب عليه تفعيل النقد الذاتي بالالتفات إلى عيوبه وتقبل نقد الآخرين لها، ومنها:

أ- النسيان وضعف الذاكرة:

قال تعالى عن آدم، عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه:١١٥) . فقد عهد الله إلى آدم بعدم الأكل من الشجرة، لكن آدم نسي وضعفت عزيمته، فاستغل الشيطان هذا النسيان والضعف، وأضاف عبئاً على جهاز المناعة الفكري عند آدم، من خلال

الوسوسة، مما مكنه من حفر ثقب في هذا الجدار، والنفاذ من خلاله إلى عقل آدم وقلبه، فارتكب آدم، عليه السلام، المعصية، وهي الأكل من الشجرة المحرمة!

إن هذه المعصية لم تؤد إلى تداعي جدار المناعة الفكري عند آدم، وكان يمكن أن يقع ذلك، كما حدث مع إبليس عندما أمره الله بالسجود قبل ذلك لآدم فرفض، ثم تداعى الجدار بصورة كاملة عندما أضاف إبليس إلى تلك المعصية التعلل بأقدار الله، حيث قال كما روى عنه القرآن: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ (الحجر:٣٩)، فنسب الغواية إلى الله، سبحانه وتعالى، أي أنه مال إلى المنهج التبريري الذي برأ نفسه وحمل العوامل الخارجية المسؤولة، وهي هنا الله سبحانه وتعالى أو القدر، أما آدم فقد شعر بحجم المسؤولية وبثقلها، وأعمل المنهج النقدي، متهماً هو وزوجته حواء نفسيهما بالظلم والضعف، طالبين المغفرة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

إن ميل إبليس إلى المنهج التبريري وانطلاق آدم من المنهج النقدي هو أحد الفروق الجوهرية بين معصية الطرفين، والتي مكّنت آدم، عليه السلام، من التوبة واستئناف عملية الابتلاء ومحاولة الوصول إلى شاطئ السلامة وبر الجنة، مع استحضار التوبة- وهي عملية من عمليات النقد الذاتي بمفهومه العريض- كسلاح في رحلته الشاقة لمخر عباب الحياة. لكن المنهج التبريري لإبليس وعدم التوبة أوصلاه إلى لعنة الله وغضبه، حيث استمرأ المعصية وأصر على السير في ذات الدرب دون مراجعة للذات.

ب- الفجور والجدل:

تتسم الطبيعة الإنسانية بوجود الفجور والجدل في تكوينها الأولي، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٨)؛ والفجور بحاجة إلى تزكية ولجم، وهذا لا يمكن أن يتم دون نقد ذاتي وإنصاف للآخرين، ولذلك جاء في الآية التالية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩-١٠)، وهي عملية مستمرة لأن النفس البشرية أمارة بالسوء ومجبولة على حب الغرائز والشهوات، حريصة على نيلها من أي طريق، ولو كان طريق الفجور، حيث الطغيان على حقوق الآخرين وعدم المبالاة باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة:٥-٦).

ولتبرير هذا الفجور فإن الإنسان متسلح بالجدل: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤).

ولتزكية النفس من الفجور، وتشذيب الجدل من الباطل، لابد من النقد الذاتي.

ج- الطغيان والعجلة:

يمتلك الإنسان استعدادات الطغيان إذا وصل إلى مرحلة الاستغناء عن الآخرين: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦-٧)، ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء:١١)،

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧)، ومن أجل تهــذيب الطغيان، وكبح جماح العجلة لابد من مراجعة الـنفس مراراً ومحاسبتها، ونقدها ومجاهدتها بصورة مستمرة، وهذا كله من جـوهر النقد الذاتي.

د- الجحود والكنود:

في تكوين الطبيعة البشرية المزدوجة يوجد نصيب للجحود وللكنود، قال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات:٦-٨)، وهذا يقتضي من الإنـسان لجم نفسه ومجاهدتها ومراجعتها .

هـ- الطمع والجزع:

تتسم الطبيعة البشرية بحب المال، كما في نهاية الآية السابقة، وبالخوف على نفسها، ومن ثم فإنها إذا تُركت على سجيتها، فإنهـا سـتبخل علـى المحتاجين للعون المادي والمعنوي، متعللة بمصلحتها، ومتخوفة مـن الفقـر والهلاك، قال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج:١٩-٢١)، ولا يمكن للإنـسان أن يتحرر من هذه الطبائع ما لم يلتزم بمنهج التزكية الإسلامي عموماً. ويحتـل النقد الذاتي بمسمياته المختلفة: المراقبة والمراجعة والمناصحة والمجاهدة والمحاسبة والتوبة والاستغفار، يحتل مكاناً مهماً جداً.

٢- الإسلام يعلمنا الالتفات إلى الذات:

إن مسيرة الفرد والمجتمع البشريين يتسمان بالتذبذب بين المتناقضات: التقدم والتخلف، الصعود والهبوط، النصر والهزيمة، النجاح والسقوط، الفوز والخسارة، غير أن هذا التذبذب ليس عشوائياً وإنما يقوم على نواميس وسنن محايدة أودعها الله في هذا الكون، والصالح لعمارة الأرض هو من يحسن استغلالها واستثمارها بعد اكتشافها بالطبع.

وقد ربى القرآن الكريم أتباعه على المنهج السنني وربطهم به، طالباً منهم الجمع بين الالتزام بالسنن والأخذ بالأسباب، والاتكال العميق عليه تعالى، وجعل تعالى الالتزام بهذه المعادلة في كل ميادين الحياة نصراً له جل وعلا يستحق صاحبها أن ينصره الله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ (الحج:٤٠)، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ (محمد:٧). ومن هنا جاءت قاعدة التغيير القرآنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، بمعنى أن أي مجتمع لا ينتقل من وضع حسن إلى سيء أو العكس إلا إذا غير ما فيه من مفردات الوضع السابق وتأهل بمؤهلات الوضع الجديد، سواء كان السير إلى الأمام أم إلى الخلف!

ولأهمية هذه القاعدة، وذلك القانون الإلهي، فقد ربى القرآن أتباعه عليه من خلال موقف هائل، انتصر فيه عُباد هبل واللات والعزى على جيش فيه

محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومصعب وحمزة ومعاذ وسعد وغيرهم من أصحاب القامات السامقة، رضي الله عنهم، بل وجُرح النبي ﷺ في هذا الموقف «موقعة أحد» وكُسرت رباعيته وسقط في الحفرة التي حفرها أحد المشركين، وأشيع بين المسلمين أنه قد قُتل، واستشهد سبعون من خيرة الصحابة على رأسهم سيد الشهداء حمزة وحامل لواء المسلمين مصعب بن عمير، وفرَّ العشرات من المسلمين من حول الرسول ﷺ تاركين إياه مع قرابة العشرة من صناديد الصحابة. كل ذلك حدث في مطلع الدعوة الإسلامية، وفي شباب الدولة المسلمة، بعد نصر مدو في العام السابق يوم بدر، قُتل فيه سبعون مشركاً وأُسر مثلهم، وهنا جاء التساؤل: من أين وكيف جاءت الهزيمة؟! هل من العبقرية العسكرية لخالد بن الوليد والدهاء السياسي لأبي سفيان، وهما قائدا المشركين يومئذٍ، أم من عوامل خارجية أخرى مرتبطة بالمناخ العام في الجزيرة؟ أم من الشيطان؟ أم من تحريض الرومان والفرس للمشركين على المسلمين؟

لا شك أن كل ذلك يمكن أن يكون ضمن منظومة متكاملة من العوامل المتسببة في هزيمة المسلمين في أي معركة، عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية مع أي عدو من أعدائهم في أي زمان أو مكان، لكن الدرس القرآني الكبير لفت الأنظار إلى الأرضية التي سمحت باستنبات أشجار الهزيمة وحشائش الضعف والوهن، إنها العوامل الداخلية، قال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (آل عمران:١٦٥)[١].

إذن، هذا الدرس التاريخي الثمين بضريبته الباهظة يُعلّم المسلمين دوماً أن يلتفتوا إلى العوامل الداخلية، وأن يُعملوا المنهج النقدي، وأن يُفعِّلوا آليات اكتشاف أوجه الخلل ومساحات الوهن ودوائر الغثائية قبل أن تستفحل وتتمكن، وأن يبتعدوا بالتالي عن المنهج التبريري، والتفسير التآمري للأحداث، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً!

وأكتفي بهذا الدرس البليغ عن إيراد عشرات الآيات في هذا السياق، إضافة إلى آيات التوبة والاستغفار، وإيراد قصص الصراع بين الحق والباطل، وحكايات الأنبياء مع أقوامهم حيث كانت حكاياتهم قمة في الالتزام بالموضوعية والنقد الذاتي، وإعذار الآخر، وتحمل المسؤولية وعدم تزكية الذات.

وبالنسبة للسنة النبوية، فسنركز قليلاً على مفردة واحدة من المفردات ذات الصلة بقضية النقد الذاتي، وذلك من خلال الدعاء. فلأول وهلة يتوقع الإنسان أن الدعاء، وهو استمداد العبد الضعيف من القوة المطلقة، سيتركز على العوامل الخارجية التي تمثل العداوة السافرة للمسلم والتي قد لا يستطيع التحكم بها مثل تحكمه بنفسه وبالعوامل المرتبطة بذاته، ومع هذا فسيتبين لنا أن أكثر دعائه ﷺ مرتبط بطلب الإعانة على العوامل الذاتية المرتبطة بالنفس

---

(١) حول سبب نزول هذه الآية راجع: السيوطي، أسباب النزول، ص٩٩؛ وراجع كتب التفسير.

وضعفها وظلمها وطغيانها ونسيانها وجحودها وطمعها وجزعها وجبنها وبخلها وكنودها.. وهكذا.

- عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ...**»[(١)].

- عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَاللَّهِ، إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[(٢)].

- عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يأمر هؤلاء الكلمات «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا -يَعْنِي فِتْنَةَ الدَّجَّالِ- وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[(٣)].

- عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**»[(٤)].

---

(١) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، رقم١٩٧٦، ص٥٩٥.

(٢) نفسه، رقم١٩٧٧، ص٥٩٥.

(٣) نفسه، رقم١٩٨٨، ص٥٩٨.

(٤) نفسه، رقم١٩٩١، ص٥٩٩.

- عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِي اللَّه عَنْه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُـــولِ اللَّـــه ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِه فِي صَلاتِي، قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[(1)].

- عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ** »[(2)].

- عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّـــي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْـــرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَـــنْ زَكَّاهَـــا، أَنْـــتَ وَلِيُّهَـــا وَمَوْلاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**»[(3)].

- وعن شَكَلِ بْنِ حُمَيْد قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّـــه، عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِه، قَالَ: فَأَخَذَ بِكَتِفِي فَقَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِـــنْ شَرِّ مَنِيِّي، يَعْنِي فَرْجَهُ**»[(4)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/٢٦٥، مسلم في صحيحه، رقم ٢٧٠٥، الترمذي في صحيحه: رقم٣٥٢١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٧١٦، أبو داود في سننه، رقم ١٥٥٠، والنسائي في سننه، ٣/٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم٢٧٢٢، والترمذي في صحيحه، برقم٣٥٦٧، والنسائي في سننه، ٨/٢٦٠.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات.

- عن عمران بن الحصين ﷺ أن النبي ﷺ علّم أباه حصيناً كلمتين يدعو بهما: «اللّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»[1].

- وروي عن الرسول ﷺ أنه كان في خطبه يستعيذ بقوله: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[2].

وإذا كان النقد الذاتي يعني إعمال العقل تفكراً فيما سلف، وإعمال القلب تقليباً فيما مضى، في سياق محاولة التخلص من السيئات والأخطاء، وفتح صفحة جديدة في كتاب «الذات»، وابتداء مرحلة جديدة في الحياة، فإن الشعائر التعبدية من ضمن مقاصدها تحقيق هذا المقصد.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي كالنهر الذي يجري بباب بيت صاحبها، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، وكذلك الجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، ما اجتُنبت الكبائر، فالحسنات يذهبن السيئات، والحج المبرور الذي يلتزم فيه المسلم بأركانه وشروطه وآدابه، مستمداً من الله التقوى محطة عمرية، يعود الفرد بعدها كيوم ولدته أمه.

حتى بعض الصلوات الدورية المرتبطة بمناسبات وأحداث غير طبيعية، مثل صلاة الاستسقاء وما يرافقها من خروج للصغار والكبار على صعيد واحد،

---

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه، برقم٣٤٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٩٢/١، أبو داود في سننه: رقم ٢١١٨؛ انظر تعليق ابن القيم على هذا الحديث في كتابه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. اعتنى به محيي الدين الشامي، ط٢(بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، د.ت.) ص١٣٥-١٣٧.

مرتدين الثياب وهي مقلوبة، ومظهرين أقصى درجات الذل والانكسار، مستغفرين بقلوبهم قبل ألسنتهم وأجسادهم، هي مسيرة احتجاجية على ذنوبنا وآثامنا وكوامن الشر والطغيان والفساد والقصور في ذواتنا.

الإسلام إذن، يدعو الفرد للتضاؤل والتواضع، ويجفف كل المنابع المؤدية إلى تورم «الذات»، داعياً الفرد والمجتمع إلى الانشغال بعيوبهما عن عيوب الآخرين، وإلى إيلاء العوامل الذاتية اهتماماً أكبر بكثير من العوامل الخارجية، وقد رأينا في مفردة الدعاء كيف كان رسول الله ﷺ يُعلّم الصحابة كيف يلتفتون إلى ذواهم، وكيف يطلبون من الله المدد والإعانة في هذا السبيل، ومن خلال استقرائي لدعوات النبي ﷺ في كتب الصحاح، فإن أكثر من ثلاثة أرباع هذه الدعوات متركزة على الذات والعوامل الداخلية، هذا في وقت كانت الدنيا كلها تتربص بالطائفة المسلمة الدوائر، من منافقين يتسللون داخل الصف المسلم، ومن يهود يمدون المنافقين بأحابيل المكر والختل والخداع والتآمر، ومن مشركين يحيطون بالجماعة المسلمة إحاطة السوار بالمعصم، وخلف هؤلاء جميعاً تقف الدنيا كلها للجماعة المسلمة بالمرصاد، ولعلم الرسول ﷺ بأن كل هؤلاء من أهل الباطل لا يمكن أن يصنعوا بأهل الحق شيئاً ما لم تكن ثغورهم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية هزيلة أو واهية، فقد انشغل ببناء الذات القوية الفاعلة والأسرة المتماسكة المتينة، والمجتمع المتحد المرصوص، فلم يجد أولئك المتربصون قابلية في صرح المجتمع الإسلامي لاستزراع أشواكهم!

٣- مفكرو المسلمين والنقد الذاتي:

لقد مرت أمة المسلمين بمراحل قوة وضعف، وكانت قيمة النقد الذاتي ذات صلة بمراحل المد والجزر، فقد كانت هذه القيمة حاضرة بقوة في المجتمع القوي، وكانت باهتة أو غائبة في مراحل الضعف والوهن، إذ من شأن المجتمعات الضعيفة أن تركب المركب الذلول، وهو هنا «المنهج التبريري» الذي يلقي بالتبعة على عوامل كثيرة جداً، وقد تصل إلى حد التناقض أحياناً، لكنها تنحو جميعاً منحى الاتجاه الخارجي، فهو وراء كل مؤامرة، وسبب كل هزيمة، وهو الشيطان الذي يمتلك قدرات خارقة، وما أفراد الداخل إلا «أحجار على رقعة الشطرنج» يحركها الآخرون كيفما شاءوا من وراء الحدود وربما من وراء البحار!

وفي كل العصور لم تخل أمة المسلمين من مفكرين جهابذة، ومجددين عظاماً، رفعوا لواء الأمة، وحملوا بوصلة الفكر، ومن ثم فإن النقد الذاتي كان أحد معالم تقدم الأمة وقوتها في فكر معظم علماء الإسلام العاملين.

أ- من العلماء القدامى:

سنعرض في هذا المقام لإشارات بسيطة من فكر عَلَمين من أعلام الأمة الكبار في العصور الوسيطة، حيث كانت عوامل التخلف قد أنشبت أظفارها في جسم الأمة، أفراداً وجماعات، وهما عبد الرحمن بن الجوزي

(ت/٥٩٧هـ)، وابن قيم الجوزية (ت/٧٥١هـ)، والعلمان كلاهما ينتميان إلى المذهب الحنبلي، الذي يُتهم بأنه أقل المذاهب عقلانية ومرونة وموضوعية.

- ابن الجوزي:

مارس عبد الرحمن بن الجوزي صوراً من النقد الذاتي لنفسه، بصورة معلنة، وسجلها في بعض كتبه، حاثاً الجميع على الاعتبار بأنفسهم والاستفادة من تجاربهم والالتفات إلى أخطائهم بدلاً من تصيد أخطاء الآخرين وترقب عثراتهم[١].

ودعا إلى النظر العقلي في تتابع العثرات المعنوية، مثلما يلتفت الإنسان عندما يتعثر وهو يسير في الطريق لما تسبب في تعثره. ومارس في كثير من كتبه نقداً شاملاً وصارماً وموضوعياً لصور من (التدين المنقوص) أحياناً و(التدين المغشوش) أحياناً أخرى، وخاصة في كتابيه «صيد الخاطر» و«تلبيس إبليس»[٢].

وقد شرَّح في هذين الكتابين «علل التدين» في عصره، بأسلوب يشبه تماماً ما فعله الشيخ محمد الغزالي في هذا العصر، لدرجة أن من يعرف أسلوب الشيخ الغزالي، إذا قرأ كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي، وقيل

---

(١) انظر: صيد الخاطر، ص٤٧٥، ٥٨٤، ٥٨٦.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص١٩٧-١٩٨.

له: لأي من أعلام هذا العصر ينتمي هذا الكتاب؟ فإنه سينسبه للشيخ الغزالي، رحمه الله.

وسأكتفي بمثال واحد، فمن يقرأ كتب ابن الجوزي يلاحظ أنه يحمل تقديراً بالغاً لعلماء المسلمين، لكنه يعتبر أن أعظم علماء الإسلام على الإطلاق ثلاثة: الحسن البصري وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري، حيث وسم هؤلاء بأنهم أكثر من جمعوا بين العلم والعمل، ومن شدة إعجابه بالإمام أحمد بن حنبل وتقديره له، فقد ألّف فيه كتاباً كما ألّف في العلمين الآخرين، لكن زيادة تقديره للإمام أحمد جعلته ينتمي إلى المذهب الحنبلي، رغم أنه امتلك من العلم ما أهّله للاجتهاد المطلق.

ومع هذا كله، فقد انتقد الإمام أحمد في بعض القضايا، وخالفه في بعض المسائل، بل وتتبع كتابه «المسند»، مستخرجاً منه عشرات الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وكانت هذه الأحاديث من الكثرة بمكان، بحيث شغب عليه بعض العلماء الحنابلة في عصره، فسجل اعتراضهم، ورثى لحالهم، معتبراً أنهم يحملون بهذا الاعتراض عقول العوام؛ لأنه لا قداسة لعالم أو كتاب بشري، ولأنه بانتقاده ذاك انتصر لمنهج أحمد بن حنبل، وإن كان قد خالفه في بعض اجتهاداته[1].

---

(١) نفسه، ص٣٩٩-٤٠٠.

وجاء بعد نحو ثلاثة قرون من موت ابن الجوزي أحد أكبر علماء المذهب الشافعي وهو الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت/٨٥٢هـ) ليؤلف كتاباً كاملاً في الدفاع عن مسند ابن حنبل أمام الانتقادات التي أثارها العالم الحنبلي ابن الجوزي في كتاب إمام مذهبه «المسند»، وهو كتاب «القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد».

وجاء بعد هؤلاء من انحاز إلى ابن الجوزي أو إلى ابن حنبل في هذا الشأن من علماء كل المذاهب، ومهما يكن الأمر فإن ما نود الإشارة إليه هنا هو إعلاء علماء المسلمين للنقد، انحيازاً إلى الفكرة ولو على حساب الشخص أو المذهب أو الطائفة، هذا بالنسبة للأعلام الكبار، أما أنصاف العلماء، فقد صار أكثرهم مداداً دافقاً لأنهار من التعصب الآسن، وصلت إلى حد الاقتتال الدموي بين أتباع أقرب مذهبي السنة إلى بعضهما.

- ابن قيم الجوزية:

سطّر ابن القيم في كثير من كتبه فصولاً وأبواباً ومباحث كاملة في موضوعات وقضايا ذات صلة وثيقة بما نسميه في هذا العصر النقد الذاتي، حيث اهتم اهتماماً بليغاً بمراقبة النفس ومحاسبتها وتزكيتها، كمحك أساس في كسب معركة الاستخلاف والعبادة في هذه الأرض، ففي كتابه «إغاثة

اللهفان» مثلاً نقرأ العنوان التـالي: «فـصل في محاسـبة الـنفس عـدة مصالح»[1].

وفي ذات الكتاب أورد العناوين التالية «فصل في اللوامة»، و«فـصل في محاسبة النفس»، نافياً سـلطان الشـيطان على الإنسان[2]، وهو المـبرر الذي يطـلقه دائماً المنحرفون، وهـو المشـجب الـذي يعلـق عليـه الخاطئون أخطاءهم!

وفي كتابه «طريق الهجرتين» أوضح كيف كـان الأنبيـاء يتـهمون أنفسـهم وهم المعصـومون عن الكبائر[3]، وفي كتابـه «الفوائـد» أورد قصة معصـية آدم، وكيف عفا الله عنه، عندما أقـر واعتـرف بذنبـه، مستغفراً منه[4].

ومارس نقد التدين المنقوص كسلفه ابن الجـوزي، مبينـاً مـدخل الشيطان، وكيفية التحصن منه في كتابه «إغاثـة اللـهفان مـن مـصائد الشيطان». وحاول إيجاد منهج كامل للخروج من علل التدين، وذلـك في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ببيان المنهج النبـوي الراشـدي في التعامل مع القرآن وتنـزيله على الوقائع والأحداث، وحدود العلاقة المثلى

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان، ١/٦٤-٦٧؛ وانظر كتابه الفوائد، تحقيـق: عـصام الـدين الصبابطي، ط١ (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م) ص٢٥١-٢٥٣.

(٢) إغاثة اللهفان، ص٥٩، ٦٧، ٧٣، ٧٦.

(٣) طريق الهجرتين، ص١٦٣-١٦٤.

(٤) الفوائد، ص٤٩-٥٠.

بين النقل والعقل، بين الدنيوي والأخروي، بين الاتباع والابتداع، إلى غيرها من الثنائيات التي كان اللبس فيها من أهم منابع الضخّ لظاهرة التدين المنقوص، فضلاً عن الانحراف الذي عُرف عن بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام.

وفي كتابه «الجواب الكافي» أورد ابن القيم روايات وآثاراً عن الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعمر بن عبد العزيز، وابن عمر، والحسن، رضي الله عنهم، تدل على أن الحوادث العظيمة كالزلازل والفتن لا تأتي إلا بسبب ذنوب، وعليه فإن مثل هذه المناسبات ينبغي أن تكون مواسم للمراجعة والتوبة والاستغفار، وسنورد هنا ما نقله عن عمر ابن عبد العزيز، فقد كتب إلى الأمصار: «أما بعد، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق به، فإن الله يقول: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى:١٤-١٥)، وقولوا كما قال آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣)، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (هود:٤٧)، وقولوا كما قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧)»[1].

(١) الجواب الكافي، ص٥٨-٥٩.

ب- من العلماء المحدثين:

بلغت أمة المسلمين في العصر الحديث قعر الانحطاط، وعندما بلغت النهاية في التخلف في الوقت الذي كانت فيه أمم أخرى تعانق شمس الحضارة بل وحط بعضها بالفعل على القمر، طُرحت أسئلة كثيرة تدور حول سؤال محوري عنوانه: «لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم»، وبدأت تظهر بوادر ومشاريع صحوة إسلامية، انسحبت عليها كثير من مظاهر التدين التقليدي المنقوص، كل ذلك أدى إلى ظهور موجات نسبية من النقد الذاتي.

وفي منطقة الوسط من تيارات الفكر الإسلامي، ظهرت شخصيات ومدارس كثيرة عملت على تشخيص واقع الأمة وترشيد مظاهر الصحوة الإسلامية. وفي هذه المنطقة الوسطية ظهرت مدرستان نقديتان هما: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وسلسلة كتب الأمة الصادرة في قطر، ولعبتا دوراً مشهوداً في محاولة غربلة التراث الإسلامي ونقده، ونقد المناهج والتيارات التغريبية وأسلمة المعرفة، وفي ترشيد الصحوة الإسلامية وإكسابها البوصلة والفاعلية اللتين تمكنانها من الإقلاع الحضاري. حيث استُكتبت الكثير من القدرات واجتُذب الكثير من العلماء والمفكرين للكتابة حول قضايا النهوض الحضاري، بما يمكن اعتباره محاولات عريضة لتأصيل وممارسة النقد الذاتي.

وعلى مستوى الأعلام، يمكن اعتبار محمد الغزالي ويوسف القرضاوي وعبد الكريم بكار وخالص جلبي في مقدمة من دعوا وعملوا على ممارسة النقد الذاتي وترشيد الصحوة الإسلامية، واكتشاف عللها ومحاولة تقديم العلاج لها.

ومن أهم الكتب التي أُلفت في ميدان النقد الذاتي: «في النقد الذاتي» للدكتور خالص جلبي، و«ظاهرة المحنة» للدكتور جلبي أيضاً، «نظرات في مسيرة العمل الإسلامي»، و«مراجعات في الفكر والدعوة والحركة»، وكلاهما للأستاذ عمر عبيد حسنه، و«الأبعاد الغائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية» للدكتور طه جابر العلواني، و«الحركة الإسلامية - رؤية مستقبلية»، و«الحركة الإسلامية ثغرات في الطريق»، وكلاهما للدكتور عبد الله النفيسي؛ وللأستاذ سالم البهنساوي كتابان هما: «أضواء على معالم في الطريق»، «سيد قطب بين العاطفية والموضوعية»؛ وللأستاذ عادل الخنساء كتابان هما: «نواقص القيادة الحركية في العمل الإسلامي المعاصر»، و«الانتحار الذاتي للجماعات الحركية في العمل الإسلامي المعاصر»، وللدكتور عبد الرشيد صقر ثلاثة كتب هي: «علل التيار الإسلامي»، «سلبيات الحركة الإسلامية وعلاجها»، «أشواك في الحقل الإسلامي».

وفي ذات السياق نقد الشيخ محمد الغزالي وضع الأمة الإسلامية، رافضاً التبريرات التي تطرح من هنا أو هناك لتفسير حالة التخلف الشامل التي

تعيشها الأمة، ودعا إلى إنشاء أجهزة للنقد[1]. وفي حرب الخليج التي اعتبرها كاشفة لعورة العرب، اشتدت مطالبته وارتفع صوته الداعي إلى تفعيل النقد الذاتي، حيث نقد الإسلاميين، ودعاهم لممارسة نقد أنفسهم[2].

وما تزال كثير من الموانع تنتصب للحيلولة دون تفعيل النقد الذاتي، من قبل أصحاب التيارات التقليدية، والذين يخلطون ما بين الثابت الذي لا يجوز نقده، والمتغير الذي قد يكون نقده واجباً وليس سائغاً فحسب.

وفي هذه المنطقة يحدث خلط بين الدين والتدين، فالبعض يتعامل مع التدين، وهو كسب بشري نسبي، ومع الدين وهو تنزيل إلهي مطلق، كما لو أنهما وجهان لعملة واحدة، ومن ثم فإن هؤلاء يسحبون بعض خصائص الدين لصالح التدين، مما يؤدي إلى أضرار فادحة على فكر المسلمين وفقههم، وعلى واقعهم المعاش، حيث صار الركود والتأسن والاجترار سمات تدمغ الفكر والواقع الإسلاميين.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنه: «إن نظرة التقديس وغياب النقد والتقويم أعطى لوناً من الأمن والاطمئنان الخادع، وأقول: والجراءة، وليس الجرأة، لكثير من غير المؤهلين وغير المتخصصين من حاطبي الليل دخول

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب (القاهرة: دار الاعتصام، د.ت.) ص٦-٧.
(٢) الحق المر، ط٢(القاهرة: مركز الإعلام العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ص١٠٣.

المجال التربوي بكل ميادينه، على خطورته وأهميته، والكتابة فيه، بل والتأليف فيه وإلقاء المحاضرات؛ لأنهم بمأمن من النقد والمراجعة، فهم يدَّعون أنهم لا يتكلمون من عند أنفسهم وإنما يبلغون رسالة ربهم(!) وعلى المتلقي أن يقبل ويسمع دون أن يفكر ويختبر ويقوِّم ويراجع؛ لأن ذلك دين، وأي مناقشة أو نقد قد يؤدي إلى التأثيم والفسوق والزندقة، وبذلك تحول الأمر إلى نوع من الوصاية والكهانة على البشر وممارسة عقود الإذعان، كما يقال.. ولعل هذه الجراءة في الإقدام لا يمارسها إلا جاهل لم تؤدبه المعرفة، ولم يعرف حدود نفسه وحقيقة التربية»[1].

إن النقد ضروري للتخلص من كثير من آفات الفكر وشوائب التفكير وعلل التدين المنقوص والمغلوط والمشبوه والمغشوش .

إن النقد كما يرى د. بكار يبلور معرفة الثقافة بنفسها، وهو على كل حال لا يؤذي إلا الحالات المريضة، ويؤكد أن الاستمرار في النقد شرط للبقاء في الطريق الصحيح[2].

إن النقد يعني أن الإنسان واع بذاته وقدرته على تجاوز النماذج الشائعة، والعودة إلى الأصول والأهداف الكبرى. ولما كان البناء الفكري

---

(١) من تقديمه لـ: عبد الرحمن بن عبد الله المالكي، مهارات التربية الإسلامية، ط١ (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد١٠٦، ربيع أول١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) ص٢٢- ٢٣.

(٢) عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة.. رؤية إسلامية، ط١ (الرياض:دار المسلم، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ص٦٧، ١٣٩ .

بناء هشاً؛ فإنه يحتاج دائماً إلى رعاية وحياطة، والنقد هو الذي يساعد على تجديده ودوام توهجه، والنقد لا يحيا إلا بالنقد، ومجادلة الفكرة بـالفكرة، والطريقة بالطريقة، وسيظل النقد يحظى بمشروعيته من خلال اتسام البـشر بالقصور[1].

وما دام الخلط بين الثنائيات قائماً وخاصة بين الثوابـت والمـتغيرات، ومادام الارتجال والعشوائية وعدم احترام التخصصات قيمـاً حاضـرة في حياتنا، فإن الموضوعية ستظل ناقصة الأركان والأسس، ولهـذا سـيكون الأساس السابع حول قضية احترام التخصصات.

---

(١) عبدالكريم بكار، تجديد الوعي، ط١ (دمشق: دار القلم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص٤٠-٤٢.

الأساس السابع
احترام التخصصات والاستفادة من خبرات الآخرين

الإسلام دين العلم والتنظيم والتخطيط، ولا يقبل الجهل والظن وسوء التقدير، ومن ثم فهو يدعو إلى التعمق في المعرفة، وهذا لا يمكن أن يقوم به فرد في كل التخصصات وميادين الحياة، ولذلك لابد من التخصص.

١ - تأسيس القرآن للتخصصات:

نصت مصادر الإسلام على أسس ودوافع التخصصات، حيث يحتوي القرآن والسنة على أصول «آيات الآفاق»، وهي ميدان التخصصات العلمية، وأصول «آيات الأنفس» وهي ميدان التخصصات الإنسانية والاجتماعية، وقد حث القرآن على السير في الأرض، والنظر في آيات الكون، والاستفادة منها في عمارة الأرض في دائرتي الاستهداء والاستثمار، وذلك في عشرات المواضع في القرآن الكريم، حيث جعل القرآن التفكر فريضة من أهم فرائض الإسلام.

عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قام ليلة فتوضأ، ثم صلى، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «ويحك

يا بلال، وما يمنعني ما أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)»، ثم قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»[1].

وفرض الإسلام التخصص في سد ثغرة من ثغور هذا الدين العلمية أو السياسية أو الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العسكرية، قال تعالى على سبيل المثال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ومن خلال هذه الآيات وأمثالها ذهب العلماء إلى أن كل تخصص من التخصصات العلمية ومن ثم العملية فرض كفاية إذا قام البعض به بحيث يسدون حاجة الأمة فيه أُجروا، وإن لم يقوموا به أثمت الأمة كلها حتى تُفرز من بينها مجموعة تلبي حاجتها في ذلك التخصص، ويستوي في ذلك طلب العلم الشرعي، وتعليم الناس، والدعوة، والجهاد العسكري، وهي المشار إليها صراحة في الآيتين السابقتين، وكذلك الطب والهندسة

---

(١) إسماعيل بن كثير (ت/٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط١ (المنصورة: دار الإيمان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ٢/١١٢- ١١٣ (المجلد الأول).

والفيزياء والكيمياء والفلك وعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا، والآداب والفنون والحرف المختلفة.. إلخ.

هذه الأعمال التي تقوم بمخ العبودية، أي عمارة الحياة، هي المشار إليها جميعاً تحت عنوان: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ والذي اقترن ذكره بالإيمان في القرآن بصيغ متعددة في أكثر من ثمانين موضعاً.

ومثلما تحدث القرآن عن الآيات الكونية، وكيف أن كل واحدة تؤدي عملها الذي تخصصت فيه بانتظام وانضباط، متكاملة فيما بينها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٣٨-٤٠)، فهكذا ينبغي أن تسير التخصصات في استعمار الأرض وإقامة الحياة الطيبة لخليفة الله في هذه الأرض، بدون تداخل أو تعارض، وبدون عشوائية أو ارتجال!

وحث الإسلام على التخصص من خلال مئات الآيات ذات الصلة بالعلم والفكر وتفعيل جهاز الوعي في الإنسان، وهو السمع والبصر والعقل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨). ويتم تفعيل جهاز الوعي في آيات الكون بالتفكر، وفي آيات الأنفس بالتبصر، وفي آيات القرآن بالتدبر، وآيات الاجتماع بالاعتبار، بمعنى إعماله في هذه الآيات بعلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ (الإسراء:٣٦).

وحرَّم في المقابل القول بدون علم وكذلك الظن، كما أسلفنا في بيان ذلك.

وإذا كان الإسلام في منطوق القرآن يُحرِّمُ إعمال جهاز الوعي بدون علم فيما يخص حقوق الله مما يتصل به مباشرة، فمن باب أولى العبادات المرتبطة بحقوق الإنسان جسماً وعقلاً ومالاً وعرضاً، والتي تتصل بخدمتها كل التخصصات الموجودة في الحياة؛ لأن الأصوليين متفقون على أن «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاحة». ومن هنا ذهب الفقهاء إلى أن من يعالج شخصاً بدون علم فيسبب له مشكلة أو عاهة فإنه ضامن، وكذلك من يعبث بأدوات الناس وآلاتهم وممتلكاتهم، وهو ما اصطلح على تسميته عند الفقهاء بـ:«تضمين الصناع».

٢- المسابقة في العبادة من خلال التخصصات:

يحتوي القرآن على آيات كثيرة ذات صلة بقضايا وموضوعات محددة، وذلك عند قراءة أسباب نزولها، أما عند النظر إلى ألفاظها فإنها عامة، كعادة القرآن حتى يكون صالحاً لكل زمان ومكان، وحتى يمكن إدخال أكبر عدد ممكن من المفردات الحياتية تحت عنوان واحدة من آيات القرآن، ومن هنا فإن هناك عدداً من آيات القرآن التي تصلح للاستشهاد بها في مجال الدعوة للمسابقة والمنافسة على العبودية من خلال إقامة التخصصات، ومنها قوله

تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٤٨). وفي تفسيره لهذه الآية أورد الفخر الرازي عدداً من الأقوال في سياق الحديث عن الصلاة والكعبة وتغيير القبلة(١).

ولما كان المسلمون في ذلك الزمن التليد متقنين لمفردات المنهج السني في عمارة الحياة، ويدركون أهمية احترام التخصصات، وانخراط الناس في الأعمال والمهن المختلفة، فقد مرروا الآية على ظاهرها المرتبط بشعيرتي الصلاة والقبلة.

ومن المعلوم أن إحدى صور الإعجاز القرآني أن ألفاظه حمّالة أوجه، حتى يستطيع تلبية حاجة الناس في كل زمان ومكان، فمباني القرآن محدودة لكن معانيه غير متناهية، وإذا حاولنا الجمع بين ظواهر النصوص ومقاصد الدين وحاجات الأمة اليوم وما استقر عليه أمر سلفنا فيما يتعلق بعمارة الحياة، فإن ذلك كله يدفعنا لاعتبار هذه الآية من الأسس التي تبني الرؤية الإسلامية في تقدير التخصصات وإقامتها: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

وهي دعوة للتسابق في عبادة الله من خلال شُعب الإيمان الكفيلة بعمارة شعاب الحياة وخدمة الحقوق الإنسانية: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، بحيث مهما يكن تخصص المسلم الحياتي أو العملي، فإنه يستطيع إرضاء الله

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ١٣/٥١٦-٥٢٤.

من خلاله، بتقديم الخدمة للآخرين بإتقان وإحسان، بحيث يشعر أنه على ثغر من ثغور هذا الدين، سواء كانت هذه الثغور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية . ومن ثم فإن الأجر موفور في هذه الدائرة، كما هو في دائرة العبادات المحضة «الشعائر التعبدية»: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾، وربما كان أجر هذه العبادات أوفر؛ لأن العبادات المتعدية أوفر أجراً من العبادات اللازمة، حسب اتفاق أغلب العلماء.

وتكاد هذه الآية أن تدعو الإنسان لإبراز مواهبه وخدمة أُمته من خلالها، ولذلك قال الإمام الرازي في تفسير ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: «أي قد زُينت له تلك الجهة وحُببت إليه، أي صارت بحيث يحبها ويرضاها»[1].

وهكذا، فإن مجيء هذه الآية في سياق الحديث عن الصلاة والقبلة لا يمنع من أن تكون معلماً على طريق تأسيس التخصصات العلمية والعملية وتقديرها، فإن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وجاء هذا التأسيس في سياق الحديث عن عبادة محضة وهي تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، كأنه تعالى يلفت أنظار المسلمين إلى العبادة بمفهومها الشامل في محراب الحياة، وهو يحدثهم عن شعيرة خاصة بمحراب الصلاة، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (البقرة:١٩٧)، فإن

---

(١) نفس المرجع، ١٣/٥١٩.

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ مرتبطة بالجوانب المادية كالأكل والشرب ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ واضح أنها مرتبطة بالزاد المعنوي الروحي كالصلاة والحج[1].

ومثل آية ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، توجد آيات عدة، يمكن اعتبارها أدلة على وجوب التخصص في جانب من جوانب الحياة، وخاصة في هذا الزمن الذي تعمقت فيه العلوم وتكثفت، ولم يعد ينفع فيه التسطيح، ولم يعد من الممكن وجود الرجل الموسوعي، ومن هذه الآيات:

- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٨٤). قال ابن عباس: «على ناحيته». وقال مجاهد: «على حدته وطبيعته». وقال قتادة: «على نيته». وقال ابن زيد: «دينه»[2].

- ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٢).

- ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ (الأحقاف:١٩).

- ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (المائدة:٤٨).

---

(١) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الحج، رقم١٥٣٢؛ النسائي، السنن، كتاب التفسير، رقم٥٣.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥٩/٣.

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

- ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢).

ولما كانت المسارعة والمسابقة في العبادات المباشرة مع الله مطلوبة، فإن عموم آيات المسابقة والمسارعة تصلح للاستشهاد بها في مجال الأعمال والتخصصات؛ لأنها عبادات كثيرة الأجر، نظراً لتعدي ثمارها المباشرة إلى الآخرين، قال تعالى: ﴿وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٤)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠)، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦١)، ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

إن خوض غمار الحياة بهذه الروح هو أحد الأسس التي ستمكّن المسلمين اليوم من التخلص من الغثائية الراهنة، معيدة الفاعلية والتمكين إليهم، وهو بالتالي من أسس التفكير الموضوعي الذي يحترم ذاته ويعرف قدره، ولا يخوض في أي مجال إلا بعلم، ويستعين بمن يعلم إذا كان لا يعلم.

٣- تقدير الخبرات والاستفادة من أصحاب التخصصات:

الخبرة من الناحية اللغوية تأتي بمعان عدة، منها: المعرفة ببواطن الأمور، والأرض اللينة، والأرض ذات الشجر، والمعرفة بالأحوال[(١)].

والخبرة تأتي بمعنى إدراك الأمور الدقيقة والخفية، من خلال عمق المعرفة وكثرة التجارب في مجال ما من مجالات الحياة، ولذلك لا يقال لفلان: إنه خبير مهما كان عمله، ما لم يضف إلى ذلك غزارة التجارب التي عايشها في مجال عمله أو تخصصه.

وأهل الخبرة هم أصحاب الدراية، في أي مجال كانت خبرتهم، ولا يمكن أن يجاريهم أحد في تخصصاتهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤).

وعندما تحدث الله تعالى عن استوائه على العرش أمر نبيه ﷺ أن يسأل عن ذلك أهل الخبرة فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٩)، فإذا كان هذا في أمر مرتبط بالعقيدة، والمأمور هو محمد ﷺ الذي كان الوحي بعلم الغيب يتنزل عليه، فكيف بالمسلمين؟ وكيف إذا كان الأمر متعلقاً بشؤون الدنيا؟!

---

(١) انظر: الراغب الأصفهاني(ت/٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، مراجعة: وائل أحمد عبد الرحمن (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.) ص١٤٨.

لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يسأل أهل الدراية والخبرة؛ لأنهم أهل كتاب، في مواضع عديدة غير الآية السابقة، قال تعالى: ﴿فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس:٩٤)، وقال: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ (الزخرف:٤٥)، وقال: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (البقرة:٢١١).

قال الفخر الرازي: يعني سل هؤلاء الحاضرين - من اليهود- أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب، كما وقع أولئك المتقدمون فيه. والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (الحشر:٢)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف:١١١)[١].

هذه الآية تمثل دعوة للاستفادة من الآخرين، من خلال إعمال العقل تفكراً في تاريخهم، لاستخراج الدروس من قصصهم، والاعتبار والاتعاظ بها، والمعني بالاستفادة هنا هم المسلمون وليسوا اليهود المعاصرين للقرآن.

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٧/٢٦٢.

ومرة أخرى أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستفيد من النبوات السابقة له، رغم أنه خاتم الأنبياء وأعظمهم، ورغم أن رسالته شملت كل ما في الرسائل السابقة من أبعاد، وجمعت كل ما فيها من خيرات، ورغم أن كتابه مهيمن على كتبهم قبل أن تُحرف، فكيف وقد حرفت؟ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [1].

وقد أورد الشيخ محمد عبده هذه الآية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، مؤكداً أهمية استحضار التاريخ في فهم هداية القرآن، ومورداً لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ (الرعد:٦) [2].

ومثلما أمر الله نبيه ﷺ بالاستفادة من معارف وخبرات الآخرين «أهل الكتاب»، فقد أمر تعالى المسلمين بمثل ذلك، وجعل هذا السؤال عند عدم وجود العلم واجباً، وأورد هذا الأمر بصيغة العموم ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣)، وكرر هذا الأمر مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا

(١) راجع تفسير هذه الآية عند: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣/٣٠٠؛ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير(تونس: دار سحنون، د.ت.) ٣٥٤/٤، ٣٥٩.

(٢) فاتحة الكتاب وجزء عم، ط١(القاهرة: كتاب جريدة الجمهورية، د.ت.) ص٤٠-٤١.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧) [١]. وجاء التكرار بنفس الصيغة للأهمية البالغة لهذا الأمر في التفاعل الفكري والعلمي بين المسلمين، شخصيات وتيارات وجماعات، وفي التفاعل الحضاري بين المسلمين وغيرهم من الحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة الغربية الآن، لأنها أكثر الحضارات قوة وتقدماً في هذا العصر، ولا يمكن أن يصل المسلمون إلى القمة في كل ما يحقق للإنسان القوة والعزة والتقدم والرفاه والتمكين بدون الاستفادة من إنجازات واختراعات وخبرات ومعارف هذه الحضارة الضخمة، بأخذ كل جميل وصائب وحسن مما يحقق مقاصد الإسلام وعمارة الأرض وحقوق الناس، وتجنب كل قبيح ومنكر وسيء في هذه الحضارة، وهي ثمرة أخرى؛ لأن تجارب تلك الحضارة، في جانب منها، أثبتت ضررها على الأفراد وإفسادها للمجتمعات، ومن ثم لا مجال للمعتبر بها في أن يجرب مرة أخرى، كما جرب أولئك، وإنما يبدأ من حيث انتهى الآخرون.

وقد وصف الله عباده المهتدين بخصائصهم الرئيسة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧-١٨).

---

(١) عن تفسير هذه الآية، انظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان، ٥٢٢/٤؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٦٩/٣.

فمن صفات عباد الله المهتدين، أصحاب العقول النيرة، أنهم في تفاعلهم مع الآخرين مهما كانوا فإنهم يمثلون قمة الموضوعية، إذ يستفيدون من كل نافع من حيث جاء؛ لأن نظرهم لا يتجاوز الموضوع إلى واضعه ولا المقول إلى قائله، ولا المعمول إلى عامله، ولا المصنوع إلى صانعه، وفي ذات الوقت فإنهم يمتلكون موازين ومعايير يستطيعون بواسطتها تمييز الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، والنافع من الضار، والثمين من الغث، بل إن هذه الموازين تمكنهم من التمييز بين أنواع الصواب وصور الحسن، حيث يتبعون الأحسن، بعد أن يعملوا قواهم العقلية وملكاتهم الفكرية في دراسة القول، إذ أنهم ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ والاستماع غير السماع، فالسماع يمر عبر الأذن، أما الاستماع فيكون بجارحة العقل مع الأذن!

إن هذا الاتباع لأحسن القول هو انحياز للفكرة الإسلامية الراقية، حتى لو جاء هذا القول من شانئ أو عدو، وهو انحياز للمصلحة المتوقع استفادتها من الاستماع، وهو دلالة على امتلاك هذا الشخص أو الكيان للتفكير السليم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقبل هذا وذاك هو انحياز للعلم والخبرة والتجارب الناجحة، وهي قيم أعلى الإسلام من شأنها.

ولقد وصل تقدير العلم والخبرة في القرآن إلى حد أنه أحلَّ صيد الكلب المعلَّم، وهو الكلب الذي يُدرب على الصيد بطريقة لا تحمل نجاسة لعابه إلى الحيوان المصيد، وبحيث لا يأكل من هذا الصيد، ولا يعذب ذلك

الحيـــوان قبل قتله، وبالتالي فهو خبير في الصيـــد، وهذه الخبرة هي الـــتي نقلت ما يصيده هذا الحيوان من دائرة الحرمة إلى دائرة الحل، قال تعـــالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤).

وإذا كان القرآن قد أجاز الاستفادة من خبرة الكلب المعلّم في مجـــال الصيد مع نجاسته في ذاته، فكيف لا يجيز الاستفادة مـــن خـــبرات البـــشر الآخرين في كل مجالات الحياة، إذا كانت هذه الاستفادة ستحقق مقاصـــد الدين ومصالح العباد، حتى لو كانت هذه المصـــالح في المعاش دون المعـــاد؛ لأن ما مع المسلم من أصول ونظم وقيم تكفل له أن يستفيد من الجميـــع في إطار تحقيق المصالح الإنسانية، معاشاً ومعاداً. بل ويستطيع المسلم بهذا الـــزاد أن يغربل ما أخذ من الآخرين من أفكار وخبرات، اخـــتلط فيهـــا الحـــق بالباطل، بحيث يأخذ ما ينفعه ويترك الزبد!

وفي سياق تقدير المعارف والخبرات، جاء في قـــصة يوســـف، عليـــه السلام، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٤-٥٥). لقد رَشَّحَ الملكُ يوسفَ بسبب معارفه، وفوَّضه في اختيار ما يريد من المناصب، ونتيجة شعور يوسف بالمسؤولية نحو الناس ونتيجة معرفته بقدراته وإمكاناته الذاتية ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فقد اختـــار العمل الذي يستطيع القيام به، وهو ما يوازي الآن وزير المالية.

ولما كانت هذه المناصب قديماً لا تتوافر لها الأنظمة الحسابية والرقابية الحديثة، فإن أعباءها تتركز على المسؤول الأول، وهنا لابد أن يجمع بين الأمانة (الحفظ) والقدرة (العلم)، وهاتان الصفتان هما من جعلتا يوسف، عليه السلام، يرشح نفسه لهذا العمل، وخاصة أن البلد(مصر) كانت مقبلة على مواسم جفاف وجدب، ستمتد لسبع سنوات، ولو لم يوجد من يمتلك الإمكانات العقلية والنفسية الملائمة لقيادة سفينة(مصر) نحو شاطئ السلامة وبر الأمان، لغرقت وسط أمواج عاتية من المجاعات والفقر والهلاك.

هذا الأمر يمثل درساً للمسلمين لكي يعملوا على اكتشاف مواهبهم وقدراتهم وتنميتها وصقلها بالتجارب حتى يتم الوصول إلى مرحلة الخبرة، من أجل توظيفها لصالح المجتمع، وإذا وجدت هذه الخبرة جاهزة عند (الآخر)، فمن الحمق عدم الاستفادة منها؛ لأن الخبرة خلاصة التفاعل بين العلم والواقع من خلال التجريب وممارسة الخطأ حتى الوصول إلى الصواب.

٤- توظيف الرسول ﷺ للمواهب واستفادته من الآخرين:

لقد كان التحول الذي أحدثه الرسول ﷺ في حياة العرب خصوصاً والبشرية عموماً، منضبطاً بالأسباب، أي سنن الله ونواميسه، فاكتسب عمله وأصحابه ذلك التأثير المدوي وتلك الفاعلية العجيبة. ومن تلك الأسباب انحيازه ﷺ الدائم إلى الأفكار والقيم وليس إلى العواطف والتقاليد والأشخاص، حيث عمل في هذا الصدد على اكتشاف مواهب أصحابه وتوظيفها في أماكنها المناسبة لها فأتت أطيب الثمر، وكان دائب الاستفادة من خبرات الآخرين مهما كانوا، سواء كان ذلك في المعاني أو في الماديات.

أ- اكتشاف المواهب واحترام التخصصات:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَوْ لِمَا يُسِّرَ لَهُ**»[1]. وفي رواية «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[2].

وفي خبرة الرسول ﷺ بالناس عامة ودرايته بأصحاب المواهب والقدرات الفاعلة والمؤثرة وندرتهم بين الناس، قال ﷺ: «**النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[3]. وعن اكتشاف هذه المواهب والقدرات واستثمارها في عملية بناء المجتمع بعد بنائها، قال ﷺ: «**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا**»[4]. وهي دعوة لاكتشاف وتربية أصحاب المواهب والقدرات المميزة والفاعلة داخل المجتمعات.

وفي تربية الرسول ﷺ لأصحابه، اكتشف مواهبهم، واضعاً كل واحد منهم في المجال الذي يناسب تفوقه وتميزه. عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[1].

وبسبب هذه المعرفة الدقيقة بمواهب وخصائص أصحابه فقد وظف كل شخص في المكان الذي يناسبه، فكان كل واحد منهم لبنة قوية في صرح الأمة المتين، الذي صار كما وصفه القرآن: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ...﴾ (الفتح:٢٩).

وعلى سبيل المثال لما كان اليمنيون أهل علم مقارنة ببقية مناطق العرب آنذاك، حيث كانوا أهل كتاب، إذ يدينون إما باليهودية أو بالنصرانية، فقد أرسل إليهم أعلم الصحابة كمعلم لهم وهو معاذ بن جبل، رضي الله عنه، الذي أرسله إلى وسط اليمن (في الجَنَد)، وأرسل إلى الشمال في نجران الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأرسل إلى الغرب (زبيد وتهامة) أبا موسى الأشعري، رضي الله عنه، وهو أحد قراء الصحابة الكبار وأحد علمائهم. وكان قبل ذلك قد أرسل مصعب بن عمير، رضي الله عنه، لتعليم مسلمي المدينة المنورة، ففتحها بالدعوة والتعليم.

وفي ذات السياق، اختار بلالاً رضي الله عنه، للأذان؛ لأنه أندى الصحابة صوتاً، واختار ثابت بن قيس بن شماس، رضي الله عنه، خطيباً؛

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب.

لأنه جهوري الصوت بليغ العبارة، واختار أصحاب البداهة والفصاحة والوسامة لكي يكونوا رسله إلى الملوك والأمراء كدحية الكلبي وعبد الله بن حذافة السهمي، وعمرو بن العاص، وعمرو بن أمية الضمري، وحاطب بن أبي بلتعة، رضي الله عنهم. واختار لقيادة الكتائب والجيوش خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وأسامة بن زيد، رضي الله عنهم؛ لأنهم كانوا أكثر الصحابة قدرة على القتال وأملكهم لفنونه... وهكذا.

وعندما كان بعض الصحابة يحاولون اختيار أماكن أو وظائف لا تناسب ملكاتهم وقدراتهم، كان يتصدى لهذا الأمر بالتي هي أحسن، ومن هؤلاء أبو ذر ﷺ، فقد ورد في كتب الحديث أنه قال: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب الرسول ﷺ بيده على منكبه، وقال: « **يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** »(١).

ويبدو أن ضعف أبي ذر ارتبط بعاطفيته ومثاليته الزائدة، حتى أنه ﷺ عندما رأى الرفاهية في بلاد الشام أيام خلافة عثمان بن عفان ﷺ حرض الناس ضد واليها معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، فاشتكاه معاوية إلى عثمان، وطلب منه الخليفة أن يقيم في الربذة خوفاً على صفوف المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة.

من التفرق، ليموت بعد ذلك وحيداً، بعد أن عاش في بعض حياته وحيداً بسبب هذه المثالية الصارمة.

ب- الاستفادة من الآخرين:

من يقرأ سنة الرسول ﷺ وسيرته سيلاحظ كيف استفاد الرسول من الآخرين في بناء دعوته ودولته، بل حتى في بناء الفرد المسلم، وهذه الاستفادة تشمل الماديات والمعنويات، أو ما يسمى اليوم بالجوانب المدنية والجوانب الثقافية.

وتسير هذه الاستفادة في اتجاهين:

-**الاتجاه الرأسي:** ويشمل الاستفادة ممن سبق المسلمين من أمم وحضارات، سواء كانت الاستفادة مادية أو معنوية.

عندما جاء الرسول ﷺ بدعوته الإسلامية كنقيض للوثنية في قضية التوحيد، لم يكن الإسلام نقيضاً للجاهلية في كل شيء، ولم يأت لاستئصال كل ما أثر عن الجاهليين، بل جاء بغربال، استبعد ما هو سيء وأبقى ما هو حسن، واستفاد منه، ففي مجال الأخلاق أُثر عن الرسول ﷺ قوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[1]. ومما أقره رسول الله ﷺ من أخلاق الجاهلية - مثلاً- نصرة المظلوم، فقد حضر وهو صغير ما سمي بحلف الفضول الذي تم التعاهد فيه على رد المظالم ونصرة المظلوم، وقال فيه ﷺ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

«لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ»[1].

وهناك صورة أخرى من صور الاستفادة من (الآخر) في الاتجاه الرأسي وهي الاستفادة السلبية، من خلال دراسة السلبيات التي وقعت فيها الحضارات، والعلل التي وقع فيها التدين عند أهل الكتاب، وتحذير المسلمين من الوقوع فيها، حتى لا تتحقق النتائج التي ظهرت في حياة أولئك الناس، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا السياق، منها:

- «**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ**»[2].

- «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»[3].

- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ خِلافَهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، كتاب مسندالمكثرين من الصحابة؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه؛ والبيهقي في شعب الإيمان (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي) ١/٣٩٥؛ نقلاً عن محمد إبراهيم الهسنياني، التأصيل الشرعي لفقه الواقع، ط١(القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص ٩١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل.

الْكَرَاهِيَةَ، وَقَالَ: «**كلاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَـانَ قَـبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**»(١).

- عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَـرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُـولَ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَـرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَـامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِـبُّ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَـلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَتَشْفَـعُ فِي حَـدٍّ مِنْ حُـدُودِ اللَّهِ؟!**» ثُـمَّ قَـامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَـرَقَ فِـيهِمُ الشَّـرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ! وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(٢).

- عَنْ حُـمَيْدِ بْنِ عَبْـدِ الرَّحْـمَنِ بْنِ عَـوْفٍ أَنَّـهُ سَمِـعَ مُعَـاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، رضي الله عنه، عَامَ حَجَّ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُـوَ يَقُولُ، وَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِنْ شَعَرٍ كَانَتْ بِيَدِ حَرَسِيٍّ: أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟ سَـمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هَـذِهِ وَيَقُولُ: «**إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْـرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ**»(٣).

-**الاتجاه الأفقي**: الاستفادة ممن عاصروا الرسول ﷺ من غير المسلمين، سواء كانوا مشركين أو كتابيين، وسواء كانت الفائدة مادية أو معنويـة، فردية أو جماعية . ومما ثبت في هذا الأمر:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب اللباس.

- استفادة الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ من خبرة عبد الله ابن أريقط الليثي بالطريق عند هجرتهما من مكة إلى المدينة، رغم بقائه على الشرك آنذاك[1].

- استفادة الرسول ﷺ من اللغة السريانية، عندما أمر زيد ابن ثابت ﷺ بتعلم هذه اللغة وأن يكون مترجمه فيها، وظهور بوادر الترجمة التي كانت إحدى آليات المسلمين للتفاعل مع الحضارات الأخرى والاستفادة منها[2].

- استفادة الرسول ﷺ وصحابته من بعض الثياب الأجنبية، التي كانت تُصنع في بلاد فارس أو الروم أو الشام أو مصر أو حتى اليمن قبل أن يعتنق اليمنيون الإسلام، مثل لبسه ﷺ لجبة رومية كانت ضيقة الأكمام[3]. ومثل ذلك حضور الخبرة الرومية في النجارة، عن طريق صهيب الرومي، رضي الله عنه، ومنبره ﷺ الذي صار يخطب فوقه، وكذلك حضور الخبرة الفارسية في حفر الخندق حول المدينة المنورة كوسيلة دفاعية أمام جحافل الغزاة من الأحزاب، بمشورة من سلمان الفارسي، رضي الله عنه.

---

(١) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٢٣٤.

(٢) انظر: الهسنياني، التأصيل الشرعي لفقه الواقع، ص ١٠٣-١٠٤.

(٣) انظر: محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات الإسلامية، ص ٢٥.

- بعض الثمار الصحية والاجتماعية التي استفادها الرسول ﷺ من استقرائه لتجارب وخبرات الآخرين، مثل العزل عند الجماع.

عن جُدَامَة بنت وَهْب الأسدية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُمْ»**[1].

- استفادة الرسول ﷺ من عدل أصحمة النجاشي ملك الحبشة، بإرسال دفعتين من أصحابه للجوء في بلاده، عندما اشتدت أذية المشركين لهم[2].

- استفادة الرسول ﷺ وصحابته من قوانين وعادات المجتمع المشرك، ومن ذلك دخول عدد منهم في جوار وحماية بعض كبراء قريش المشركين[3].

- استفادة الرسول ﷺ وصحابته من الخبرة الزراعية لليهود عند فتح خيبر[4].

---

(١) مسلم، كتاب النكاح.

(٢) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، ص١٢٦-١٣٤؛ منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ط٢(الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ٦٣/١-٦٦.

(٣) انظر: منير الغضبان، المنهج الحركي، ص ٦٨-٧٤.

(٤) نفس المرجع، ٧٩/٣.

٥- الصحابة يسيرون في طريق التخصص والاستفادة من (الآخر):

رغم انشغال أكثر الصحابة بالجهاد، حيث كانت تلك المرحلة تقتضي التأسيس للدعوة وإقامة الدولة، ومواجهة الأعداء المتربصين بهذه الأمة الناشئة الدوائر، مع ذلك فقد كانت سائر التخصصات التي لا تزدهر الحياة إلا بها في ذلك الزمان موجودة، سواء كانت تخصصات علمية كالدعوة والوعظ والتعليم في مختلف حقول المعرفة المتوافرة آنذاك، أو تخصصات عملية شاملة لسائر المهن المساهمة في عمارة الحياة وخدمة الإنسان من طبابة وتمريض وصيدلة وهندسة وعمارة ونجارة وزراعة وحرف وتجارة، أو تخصصات ثقافية أدبية كالشعر والرواية والإنشاد والوعظ والترجمة.

ولو لم يشتمل ذلك المجتمع السامق على سائر التخصصات لإقامة مداميك تلك الأمة لما قامت بذلك الإتقان وتلك القوة، خلال زمن وجيز لا يتعدى نصف قرن من الزمان.

ولما لم يكن العرب أصحاب مهن، فضلاً عن أن يكونوا أصحاب حضارة، فقد استفادوا من تجارب ومنجزات الآخرين، ولم يجدوا في ذلك غضاضة أو عيباً.

ولمعرفة الصحابة بأن أصول الإسلام ومقاصد الشريعة تجيزان الاستفادة من (الآخر)، فقد اقترح بعض الصحابة الاستفادة من وسائل اليهود والنصارى في الدعوة إلى الصلاة، قبل أن يشرع الآذان.

عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلاةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا بِلالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاةِ**»[1].

ولإيمان الصحابة بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، فقد استفاد اثنان من كبارهم من امرأة نصرانية في مسألة مرتبطة بعبادة قلبية.

روي أن سلمان الفارسي وأبا الدرداء، رضي الله عنهما، أرادا الصلاة في بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء: هل في بيتك مكان طاهر، فنصلي فيه؟ فقالت: طهرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما! فقال له سلمان: خذها من غير فقيه [2]. ووصل الأمر بالصحابي الجليل أبي هريرة إلى الاستفادة من الشيطان كما جاء في حديث صحيح.

وقد استفاد الصحابة الكرام جميعاً من خبرات أهاليهم وأقوامهم، لم يمنعهم كفر أولئك من تلك الاستفادة، مثل استفادة سلمان الفارسي ﷺ حفر الخندق يوم الأحزاب من قومه الفرس وهم عباد النار، وتشجيع الرسول ﷺ لهذه الفكرة وتطبيقها على الفور، مادامت تساهم في درء مفسدة وتحقيق مصلحة للمسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان.

(٢) بكار، فصول، ص ١٧٧.

وعند إقامة الدولة الإسلامية استفاد الخلفاء الراشدون من تجارب الدول الأخرى وخاصة الفارسية والرومانية، حيث أخذوا منهم الكثير من الخبرات والأعراف السياسية والإدارية والاقتصادية، بل ظلت العملة المتداولة في دولة المسلمين لسنوات طويلة، هي ذات العملة الموجودة في بلاد الروم وفي بلاد الفرس.

ووصل الأمر إلى أبعد من ذلك، فقد أثمر التفاعل الحضاري بين المسلمين وغيرهم أن دخلت إلى المنظومة الثقافية الإسلامية الكثير من الجزئيات التي لا تدخل تحت إطار ما يسمى بالغزو الثقافي.

ومن ذلك اشتمال العربية على كلمات من لغات غير عربية كالفارسية والحبشية، واستخدام القرآن لهذه الكلمات، كما ذهب إلى ذلك كثير من علماء المسلمين[1].

وحتى لو لم يحتوي القرآن على أي مفردة غير عربية، كما ذهب إلى ذلك علماء آخرون، اعتماداً على دلائل اقتنعوا بها، فإن الرأي الذي يرى احتواء القرآن على كلمات غير عربية إنما اتكأ على الأصل العام الذي قام عليه الإسلام في هذا الصدد، وهو جواز الاستفادة من (الآخر)، بل وجوب هذه الاستفادة إذا كان الأمر المطلوب لن يتحقق إلا بها «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»!

---

(١) انظر مثلاً: محمد عبده، فاتحة الكتاب وجزء عم، ص ٩٣، ٩٦.

الأساس الثامن
النسبية وعدم التعميم

لا يمكن أن يتسم أي فكر بالموضوعية ما لم يتحرر أصحابه من أغلال الإطلاق، وآصار التعميم، بحيث يكونوا دقيقين في نظراتهم ورؤاهم، ومنصفين في أحكامهم، ومتوازنين في مواقفهم.

ويمكن أن نوضح هذا الأساس من خلال النقاط الآتية:

١ - عدم التسوية بين المتقابلين:

لا يمكن لصاحب الفكر الموضوعي أن يُصاب بعمى الألوان ويتشابه عليه البقر ويختلط عنده الحابل بالنابل، بل يضع النقط على الحروف، ويميز بين الأشياء، وخاصة إذا تعلق الأمر بالنقائض والأضداد.

وقد سجل القرآن عشرات الآيات في هذا السياق، من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد:١٦)؛ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩)؛ ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (النساء:٩٥)؛ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ...﴾ (فاطر:٢٢)؛ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ...﴾ (الحديد:١٠)؛ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا...﴾ (الزمر:٢٩)، ومثل ذلك ما ورد في (النحل:٧٥-٧٦)؛ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (فاطر:١٢)؛ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت:٣٤)؛ ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك:٢٢)؛ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة:١٠٠)؛ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (الحشر:٢٠).

إذن لا يجوز التسوية بين الأشياء المختلفة بصريح القرآن الكريم.

ومن ذلك عدم جواز الخلط بين الأصول والفروع، أو بين الكليات والجزئيات، أو بين المقاصد والوسائل، أو بين القطعيات والظنيات، أو بين الفرائض والنوافل، أو بين المضامين والأشكال، أو بين المحرمات والمكروهات.

ولا شك أنه حتى في إطار الطاعات يوجد تفاوت لا يصح تفويته، وكذلك الأمر في إطار المعاصي، فالكبائر غير الصغائر، والذنوب المتعدية غير الذنوب اللازمة، وذنوب المستتر غير ذنوب المجاهر.

ونختم هذه الفقرة بإيراد آيتين عن التفريق بين الكبائر والصغائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء:٣١)، ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم:٣٢).

٢- التعميم مرفوض ديناً وعقلاً:

إن العقائد والأفكار تتعدد وتتنوع كالألوان، فالطبيعة لا تنحصر في اللونين الأبيض والأسود، وكذلك فإن الحياة ليس فيها شر محض وخير محض، بمعنى أن الشر فيه تفاوت وتعدد واختلاف، مثلما هو حال الخير.

وهذا ما ينبغي أن نتعلمه من القرآن، فإنه لا يستخدم الألفاظ الحدية والمطلقة، بل يستخدم الكلمات المنضبطة والمصطلحات التي تعبر عن الحقائق والوقائع بدقة متناهية، مثل مصطلح «أكثر» ومشتقاته، فقد ورد في (البقرة: ١٠٠، ١٠٩، ٢٤٣)، (آل عمران: ١١٠)، (النساء: ١١٤)، (المائدة: ١٥، ٣٢، ٤٩، ٥٩، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٧٧، ٨٠، ٨١، ١٠٣)، (الأنعام: ٣٧، ٩١، ١١١، ١١٦، ١١٩، ١٣٧)، (الشعراء: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠، ٢٢٣)، ووردت هذه المفردة في سور أخرى هي: الأعراف، التوبة، إبراهيم، الروم، يس، ص، الحجرات، نوح، يوسف، الإسراء، الصافات، غافر، سبأ، النحل، القصص، الزمر، العنكبوت، النمل، لقمان، فصلت، الدخان، الطور، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان.

وفي المقابل وردت ألفاظ (القليل) في اثنين وسبعين موضعاً من القرآن الكريم. إذن، عندما يورد القرآن مصطلحي الكثرة والقلة، فلا مكان هنا للإطلاق والتعميم في الحديث عن الناس والأشياء والظواهر جميعاً، فلا يصح أن يضع المرء كل شيء في خانة واحدة.

وعندما يتحدث القرآن عن الآخر (غير المسلمين وغير المؤمنين) فإنه لا ينسب إليهم كل رذيل مرة واحدة، نازعاً منهم كل خير، ولا يضع الجميع في سلة واحدة، ولكنه غالباً ما يستخدم كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ للتبعيض والتفريق، ونجد مثل ذلك في سور كثيرة: (البقرة:٧٥، ١٠٠، ١٠١، ١٤٦، ١٨٨)، (آل عمران:٢٣، ٧٨، ١٠٠، ١٩٩)، (النساء:٧٧)، (التوبة:١١٧)، (النحل:٥٤)، (النور:٤٧-٤٨)، (الروم:٣٣)، (الأحزاب:١٣)، (الأنفال:٥)، (سبأ:٢٠).

ويضع القرآن مبدأ عاماً في التعامل مع (الآخر)، وهو يتحدث عن اليهود الذين يمثلون الرقم واحد في سُلّم العداوة للمسلمين، حيث يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٣- ١١٤)؛ ويقول تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران:٧٥) .

فإذا كان عنوان التعامل الفكري والفعلي مع أعدى أعداء المسلمين ينطلق من قاعدة قرآنية عامة ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ فكيف يكون الأمر مع الآخرين، سواء كانوا أحزاباً وجماعات أو فرقاً وطوائف، أو مذاهب وتيارات؟

إن الناس مختلفون، عقليات وأفهاماً وطبائع وأمزجة ومستويات متباينة، ومن ثم فإن كل إنسان مسؤول عن نفسه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم:٣٨ -٣٩)، فمن أين جاءت الأفهام التي تسوي بين الجميع؟ وعلامَ يستند من يحكم على الجميع بذات الحكم؟

وهل من العدل والمنطق في شيء أن يضع المسلمُ اليهوديَّ الذي يحارب النظام الصهيوني الاستعماري بجانب القاتل الصهيوني الغازي؟

إن الملايين من المسيحيين، التي خرجت في شوارع لندن ونيويورك وروما وباريس ومدريد وبرلين، تعارض الحرب على العراق، تؤكد أن رؤية القرآن ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ هي الأبرز والأوضح والأصدق والأعدل! فليس كل يهودي صهيونياً، وليس كل مسيحي صليبياً، وليس كل هندوسي معتدياً، وهكذا.

إن التعميم لا يجوز في المنطق الإسلامي، حتى في الدعاء، فلم يثبت أن الرسول ﷺ دعا على أي من الكفار لكفرهم، لكنه دعا على المعتدين منهم، وهنا لن تجد أي مجتمع يتصف بصفات الاعتداء برمته، فهناك دوماً من يكرهون ذلك.

ولتقرير حقيقة المسؤولية الفردية وحرمة التعميم جاء في الحديث الشريف أن أبا هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: **«قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير.

وفي سياق تحريم التعميم أورد القرآن أنه حتى في إطار الجمادات لا يصح هذا التعميم، فمخلوق مثل الحجارة الصماء، ليست بذلك السوء الذي يظنه المشاهد لها، لاشتمالها على صور من الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ (البقرة:٧٤)، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الحشر:٢١).

وبيّن لنا القرآن أن هناك استثناءات صالحة في دوائر الفساد نفسها، حيث لا وجود للشر المطلق والخير المحض، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤-٢٢٧).

وعندما تحدث عن الخمر والميسر، وهما من الكبائر في الرؤية الإسلامية، أشار القرآن إلى أنهما ليسا شراً محضاً بل فيهما بعض المنافع، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ (البقرة:٢١٩) .

ورغم أن غير المسلمين يُطلق عليهم من حيث المبدأ مصطلح «الكفار»، ورغم أن «الكفر ملة واحدة»، لكن ذلك لا يعني الإطلاق إلا من حيث

الحكم العام، فهناك فروق فردية، وهناك تمايزات بين سائر الملل والنحل. وقد رتب القرآن هذه الملل من حيث عداوتها للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ (المائدة:٨٢).

ولإدراك المسلمين الأوائل لهذه الفروق، فقد حزنوا عند هزيمة الروم، وهم أهل كتاب، أمام الفرس الذين كانوا يعبدون النار، فنزلت سورة «الروم» تبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون خلال مدة لن تتجاوز التسع سنوات، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم:١-٥).

لا يوجد الشر المحض، فقد قال بعضهم: حتى الساعة المتوقفة عن العمل يمكن أن تكون مصيبة خلال اليوم مرتين ! ولهذا فإن النار دركات.

وفي المقابل لا وجود للخير الخالص والصواب الكامل، فقد قسّم الله تعالى المصطفين من عباده إلى ثلاثة أصناف رئيسة، كما قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم

﴿مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢). ولهذا فإن الجنة درجات، وما بين الدرجة والأخرى كالفرق بين السماء والأرض!

وليست هذه الفوارق النسبية من نصيب عامة المسلمين فقط، بل هي موجودة حتى في أوساط أفضل جيل عرفته الخليقة منذ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة، وهم الصحابة الكرام، فقد قال تعالى عن هؤلاء في غزوة تبوك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ (التوبة:١١٧)، فقد كان إيمان بعض الصحابة من الضعف بحيث كادت قلوبهم أن تزيغ!

وفي (أُحُد) عرفنا كيف حاقت الهزيمة بذلك الجيل القرآني الفريد، بسبب المعاصي التي ارتكبها بعضهم وأدت إلى نزول المتوسط الإيماني العام، فكانت الهزيمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٥)، وقيل مثل ذلك في حنين، مما يؤكد أن لا وجود للمطلق في (التدين) الإسلامي، سواء كان فكراً أو سلوكاً، فالنسبية هي المتسيدة دوماً، والكمال هو لـ«الدين»؛ لأنه جاء من عند الله مالك الكمالات كلها، أما (التدين) فهو نسبي، حيث يقترب بهذا القدر من (الدين) أو ذاك.

٣- استحالة امتلاك أحد للحقيقة المطلقة:

الفكر هو خلاصة التفاعل بين الإنسان الناقص والدين الكامل، فهو إذن طريقة البشر في فهم حقائق الدين وتطبيقهم لها في الواقع. وبالتالي فإنه يقترب من الدين بهذا المستوى أو ذاك القدر، لكنه لا يمكن أن يصل، في كل الأحوال، إلى حد التطابق مع الدين؛ لأن منبع هذا الفكر هو العقل، وهو إجمالاً يمتلك استعدادات الصواب والخطأ، ثم إن هناك فروقاً فردية كبيرة في دائرة الصواب ومثلها في دائرة الخطأ. هذه الفوارق النسبية تجعل من المستحيل إمكانية امتلاك أي فرد للصواب الكامل، أو احتكار الحقيقة المطلقة.

لابد من النسبية في الفكر البشري، ولو كان هذا الفكر مرتبطاً بالدين الإسلامي؛ لأن الناس يتفاوتون في امتلاك أزِمَّة التفكير ومقاليد الاجتهاد، ويتفاوتون في فهم الواقع، ويتفاوتون في كيفية تتريل النصوص على الوقائع والأحداث.

وحتى لو افترضنا أننا أتينا بمجموعة من المفكرين المتشابهين في القدرات العقلية، فإن أفكارهم لن تصل إلى حد التطابق، وخاصة في القضايا المعقدة والشائكة، فستختلف رؤاهم وفقاً للزاوية التي ينظر كل واحد منهم من خلالها إلى الحقيقة، بمعنى أن الحقائق غالباً ما يكون لها أكثر من وجه، وبالتالي فإن الرؤى ستختلف وفقاً لاختلاف الزوايا التي ينظر من خلالها المفكر والفقيه.

إن الثبات يكون للحلال البيِّن والحرام البيِّن، أما المنطقة الواسعة الممتدة بينهما فهي نسبية، تتغير ألوانها بتغير الناظرين إليها، وباختلاف الظروف الزمانية والمكانية التي توجد فيها.

تقوم الطبيعة البشرية على الجمع بين المتضادات، فالإنسان يحمل بفطرته إمكانات الخير والشر ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٨)، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، ويحمل استعدادات الصواب والخطأ، التذكر والنسيان، القوة والضعف، الإقدام والإحجام، الحركة والثبات. وهذا ينطبق على كل أحد من البشر، باستثناء الأنبياء عندما يكونون في مقام النبوة والرسالة، فإن مدد الوحي الآتي من صاحب الكمال المطلق يمنعهم من الخطأ (العصمة).

أما عندما (يفكر) الأنبياء ببشريتهم البحتة، فإنهم يصيبون ويخطئون، وقد أخطأ جميعهم في هذه الدائرة وتابوا، وتعرضوا لعتاب الله. وتكمن عصمتهم في أنهم لا يمكن أن يخطئوا في الدائرة المرتبطة بالنقل (الوحي) ، وإذا أخطأوا في الدائرة المرتبطة بالعقل (التفكير والاجتهاد)، فإن الوحي ينزل ليصحح الخطأ أمام الأتباع حتى لا يكون هذا الخطأ محلاً للتأسي والاقتداء، ومن هنا فإن قمة الكمال البشري والرسالي وهو محمد ﷺ قد تعرض مراراً للتوجيه القرآني تارة، والعتاب تارة ثانية، والتحذير تارة أخرى، وهو درس عظيم، لو كنا نفقه، في تأكيد استحالة امتلاك الفرد للحقيقة المطلقة؛ بل حتى الجماعات لا تمتلك الحقيقة المطلقة، وحدها هي الأمة بأجمعها تمتلك هذه الحقيقة إذا أجمعت على أمر ما، كما قال ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**»[(١)]،

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وفي رواية: «**على خطأ**»؛ وفي رواية للحاكم: «**لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار**».

إن النظر إلى الحقيقة من زوايا متعددة هو ما يدل عليه القرآن الكريم، فقد عاب تعالى، وهو يتحدث عن علل التدين عند أهل الكتاب، على اليهود والنصارى الذين ادعى كل طرف منهم أنه على الحق الكامل وأن غيره على ضلال مبين، كما نقل القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:١١٣).

وهكذا بصريح القرآن فإن احتكار الحقيقة وتسفيه (الآخر) هو ديدن الجهلة في كل زمان ومكان: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾!

العلم يساعد على معرفة كل أبعاد الحقيقة، ومن ثم يقضي على النزاعات، ويجفف منابع الفرقة الفكرية. والنظر إلى الحقيقة من كل الزوايا يساعد على اكتشاف الثغرات وحراسة الثغور وإتقان الصنعة، واكتشاف مناطق الاتفاق مع (الآخر)، وإمكانات الاستفادة من نقاط قوته في سد ثغراتنا، وهي قمة الموضوعية ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر:١٨)، حيث النظر إلى القول وليس إلى القائل، كما أسلفنا في بيان ذلك.

إن ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة ينبني على خللين أو أحدهما: علّة نفسية تدفع صاحبها إلى تزكية ذاته واتهام الآخرين؛ وخلل فكري ناتج عن رؤية

الحقيقة من وجه واحد، وهو مرض عضال حذر منه أصحاب الفكر السوي، قديماً وحديثاً.

وتبقى، النسبية من أسس الموضوعية؛ ومن مقتضيات النسبية النظر إلى الحقائق بكل أبعادها ومن كل زواياها، وهذا لا يستطيعه فرد مهما أوتي من علم، فالعلم محدود بحدود إمكانات صاحبه وحواسه.

٤- مراعاة الفروق الفردية:

لقد حبا الله الناس بقدرات متعددة ومتفاوتة، لكنها لا تجتمع أبداً في شخص واحد، ولا يمكن أن يُحرم منها جميعاً أي شخص، فلكل فرد منها نصيب، وهذا النصيب متفاوت، بتفاوت المواهب نفسها، وبتفاوت الظروف المساعدة على صقلها وتنميتها، ومن هنا تظل النسبية حاضرة في كل الأحوال.

ففي العلم أشار القرآن إلى هذه النسبية بقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)، وتقوم الاستفادة من (الآخر) على أصول عدة، منها هذا الأصل، حيث أعطى الله منحه العلمية للناس جميعاً بحسب جهدهم، ومن ثم يمكن أن يتفوق غير المسلم على المسلم في بعض العلوم والتخصصات، فيجب على المسلم إنصافه والاعتراف بما عنده من نقاط قوة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف:٨٥)، داعياً للانطلاق من ذلك إلى الاستفادة من هؤلاء؛ لأنهم أهل خبرة ودراية، كما أسلفنا.

وفي قضية الدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دعا القرآن إلى الانطلاق من الحكمة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل:١٢٥)؛ والحكمة هي وضع الشيء في محله، بمعنى الانطلاق من قيمة النسبية، بمراعاة الفروق الفردية بين الناس، والدخول على كل شخص بما يكون أصلح لتعليمه ودعوته، ولذلك ذكر في الآية ذاتها قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)؛ و(الأحسن) هنا نسبية تختلف من شخص إلى آخر، فقد ينفع أسلوب اللين مع أشخاص، لكن آخرين قد لا ينفع معهم إلا الشدة، ولذلك قال القرآن في موضع آخر: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت:٣٤) فلم يقل ادفع السيئة بالحسنة دوماً، ولكن قال ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، بمعنى أن هناك من لو رُد على سيئاتهم بحسنات لازدادوا عتواً ونفوراً، وبالتالي لابد من (الحكمة) بحيث يستخدم الأسلوب المناسب مع الشخص المناسب، ومن وصل إلى هذه الدرجة من فهم الناس والتعامل معهم بما يتناسب مع عقولهم وطبائعهم يكون قد وصل إلى درجة الحكمة، وهي عطية الله لمن التزموا بأسس الموضوعية والتزموا طريق العدل والإنصاف، وساروا في درب العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

وكان رسول الله ﷺ يراعي الفروق الفردية في دعوته للناس وتربيته لأصحابه، فعلى سبيل المثال، سُئل مرات عدة عن أفضل الأعمال، وكان في كل مرة يجيب بإجابة مختلفة، وقد علّل ابن تيمية ذلك بقوله: «والأفضل يتنوع بتنوع الناس... فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل ثم يكون تارة أخرى مرجوحاً أو منهياً عنه... وقد يكون شخص يصلح دينه على العمل المفضول دون الأفضل فيكون أفضل في حقه. كما أن الحج في حق النساء أفضل من الجهاد، ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة. ومنهم من يكون الذّكر أنفع له من القراءة... والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له وتارة هذا أفضل له»(١).

وكان رسول الله ﷺ يحدث الناس بما يفهمون، ويتعامل معهم بما يعقلون ويقبلون، وترك أموراً من الشرع ليتألف بتركها قلوب بعضهم، أو حتى لا يحدث سوء فهم قد ينقلب إلى فتنة، مثل تركه لإعادة بناء الكعبة على الأسس التي بناها إبراهيم ﷺ . فقد قال لعائشة، رضي الله عنها: **«لَوْلا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ – قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: بِكُفْرٍ– لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ، بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ»** (٢).

---

(١) الفتاوى الكبرى، ٣٠٨/١-٣٠٩؛ نقلاً عن: محمد الوكيلي، فقه الأولويات.. دراسة في الضوابط، ط١(هيردن، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ/١٩٩٧م) ص٥٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، ٢٢٤/١.

وشرع الله تعالى ورسوله ﷺ التيسير كقيمة إسلامية أصيلة من أجل مراعاة القدرات المختلفة بين المسلمين. قال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»(1). وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(2).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلانٌ، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ**»(3).

٥- قيام الحياة على قيم نسبية:

الإسلام دين وسطي، وأمة الإسلام أمة وسطية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، والوسطية لها معاني لغوية عدة، ومن معانيها الأساسية: البينية، أي التوسط بين طرفين، وهي مساحة واسعة بين طرفين ضيقين، بمعنى أنها تتسع لكثير من الأفهام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس (فتح الباري، ٣٨٦/١٠)؛ أخرجه مسلم، كتاب الصيام (شرح صحيح مسلم، ٢٨٦/٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب (فتح الباري، ٦٤٢/١٠).

(٣) البخاري، كتاب العلم (فتح الباري: ٢٤٧/١)؛ أخرجه مسلم، كتاب الصلاة (شرح صحيح مسلم، ٤٢٩/٤).

والتيارات والجماعات والمذاهب والمواقف المتعددة، والذين يحتكرون الحقيقة يصادمون النسبية ويضيقون الوسطية الواسعة، بل ويضيقون رحمة الله، التي وسعت كل شيء!

الجدير بالإشارة هنا أننا نقصد بنسبية الوسطية عدم احتكار أي طرف كان للحقيقة كاملة في أوساط التيارات والمذاهب والطوائف الإسلامية، مع تأكيد وجود الثوابت العامة التي هي محل إجماع الأمة، فإنها معيار للتمييز بين من يفكر ويعمل في دائرة الوسطية الواسعة، ومن اندفع نحو طرف الجحود والتفلت أو طرف الجمود والتزمت.

إن الحياة مليئة بالمخلوقات والنباتات والجمادات المختلفة، والقانون الذي ينتظمها هو قانون النسبية، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ (الرعد:٨)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ (القمر:٤٩)، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ (فصلت:١٠)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ (الفرقان:٢)، فإن هذا التقدير هو ذات مفهوم النسبية، حيث خلق الله المخلوقات والكائنات والظواهر المختلفة بنسب مقدرة مضبوطة، ليحيا الإنسان وفق المشيئة الإلهية، لكن هذه النسبية تختل بسبب فساد الإنسان، مثل ظاهرة الاحتباس الحراري وثقب الأوزون، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ (الروم:٤١).

وكلما اتسعت معارف البشر اكتشفوا المزيد من الحقائق المؤكدة أن الكون يقوم على هذه النسبية، التي أشارت إليها الآيات القرآنية الآنفة الذكر. وكان العالم الشهير «ألبرت إينشتاين» قد اكتشف النظرية النسبية الخاصة سنة ١٩٠٥م ثم النظرية النسبية العامة سنة١٩١٦م، وهي نظرية في علم الفيزياء، أي أنها مرتبطة بالعلوم المادية، وقد كان لها الكثير من الثمار الحلوة والمرة في حياة البشر منذ ذلك الوقت. وما يهمنا هنا هو اكتشاف العلوم لمزيد من الدوائر المؤكدة لنسبية الظواهر الكونية، فإذا كان هذا الأمر يتم في العلوم المادية والطبيعية، فكيف بالعلوم الإنسانية، وخاصة في دوائر الفكر البشري؟!

يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن شؤون الحياة نسبية كلها، قلما يوجد فيها خير محض أو شر محض، وطبائع الأشياء ومعادن الناس من طبائع هذه الأرض ومعادنها، فالذهب لا يُعثر عليه خالصاً من الشوائب الرخيصة، ولكنه على كل حال ذهب، والحديد لا يوجد إلا مقروناً بشتى الأخلاط، ولكنه لا يُرمى ولا يُهمل بل يُنقى وينتفع فيه، ومعاني الحياة كمعادن الأرض لا يجوز أن ننتظر وجودها بين أيدينا مصفاة من كل شائبة، مبرأة من كل عيب، بل سيقترن الخير بالشر، ويقترن الطيب بالخبيث... والإسلام ينظر إلى الأمور هذه النظرة الصادقة، فما غلب خيرُه شرَّه أبيح، وما غلب شرُّه خيرَه حزم، وعلى هذا الأساس حرم الخمر والميسر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ﴾ (البقرة:٢١٩)»[1].

وفي القرآن الكريم تطبيقات عديدة لهذه النسبية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة:٢١٩)، فقد تساءل عدد من الصحابة عما يجب عليهم في الإنفاق، فجاء الجواب العام ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ والعفو هنا هو الفضل والزائد، وهو مفهوم نسبي، بمعنى أن هناك من يجب عليه إنفاق الملايين، وهناك من لا يُطلب منه إلا إخراج الملاليم؛ لأن «الزائد» يختلف من شخص إلى آخر، وهي آية ينبغي أن تخضع للتفكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي كثير من المسائل التي اختلف حولها المفسرون والفقهاء، يمكن بالتدبر والدوران مع المقاصد حلها وحسمها بالتفكير الموضوعي القائم على النسبية، مثل ماهية «الصلاة الوسطى» الوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨)، فمن يقرأ في كتب أسباب النزول، يجد روايات مختلفة بين السلف الصالح حول تحديد المقصود بالصلاة الوسطى[2]. ويبدو لي أن الصلاة الوسطى وفقاً لهذا الاختلاف ينطبق عليها مفهوم النسبية، بمعنى

---

(١) تأملات في الدين والحياة، ط١(القاهرة: دار الدعوة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص١٦٤.
(٢) انظر: السيوطي، أسباب النزول، ص٧٣-٧٤.

أنها ليست فرضاً واحداً بالتعيين على طول الخط، فهي تختلف باختلاف الظروف، حيث تكون هي الصلاة الأصعب على الإنسان، ومن ثم فإنها ستختلف من شخص إلى آخر.

وإن الناظر في منظومة القيم الإسلامية في مجال الأخلاق سيجد النسبية حاضرة بوضوح، فمع أن الأخلاق من حيث المبدأ تدخل إجمالاً ضمن دائرة الثوابت المطلقة، التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان والناس، إلا أن النسبية حاضرة في التنزيل والتطبيق، إذ أن معظم القيم الأخلاقية فضائل تقع في الوسط بين طرفين مذمومين، فالشجاعة فضيلة بين رذيلتين هما الجبن والتهور، والكرم فضيلة بين مذمومين هما: البخل والتبذير، وهكذا.

أما بالنسبة للقيم التي لا تقع بين طرفين كالصدق، فإن النسبية حاضرة فيها بصورة أخرى، فهناك مواقع ومواقف يكون الصدق فيها عيباً وليس فضيلة، مثل: إعطاء معلومات دقيقة عن وضع المجتمع والجيش للعدو المحارب، فالخداع هنا مطلوب، والتكتم هنا مطلوب ومحمود، وكذلك إفشاء المعلومات للطالب الممتحن في قاعة الامتحانات، ومواجهة من ابتلاه الله بقبح في مظهره بالحقيقة، ونقل المعلومات التي قد تؤدي لفساد ذات البين.. وهكذا. ولا تحضر هذه النسبية في الأخلاق فحسب، بل تحضر في الأحكام أيضاً.

٦- النسبية وتغير الأحكام:

من القواعد التي تعارف عليها الأصوليون أن «الفتوى تقدر زماناً ومكاناً»، ولذلك نقل عن معظم الفقهاء فتاوى وآراء متعددة في ذات المسألة، فالإمام الشافعي له مذهبان، الأول يعبر عن الشطر الأول من حياته حيث كان في العراق، والثاني يجسد قناعاته في الشطر الآخر من حياته، حيث تغير الزمان والمكان، عندما انتقل للسكنى في مصر.

وكان للإمام مالك أكثر من رأي في كثير من المسائل رغم أنه قضى حياته كلها في المدينة المنورة، لكن تغير الزمان دفعه لتغيير بعض فتاواه، أما الإمام أحمد فقد كان يُنقل عنه في المسألة الواحدة خمسة آراء، وروي في كتب التراث أنه كان يقعد للفتوى في مكة أثناء مواسم الحج، وكان قبل أن يجيب السائل عن سؤاله يسأله عن بلده فيجيبه بما يراعي ظروف بلاده، وهكذا كانت الفتاوى تختلف باختلاف الأماكن مع أن المفتي واحد والمسألة واحدة والزمن واحد.

ورغم أن الحرام بيِّن و لم يمت الرسول ﷺ إلا وقد وضحه عبر تبليغه للقرآن والسنة، إلا أن بعض المحرمات قد يجوز فعلها حال الضرورة، وقد يصل الأمر إلى حد الوجوب كما يرى ذلك أكثر الفقهاء، قال تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٣)،

وقال مثل ذلك في سورة الأنعام (الآية:١٤٥)، وقال أيضاً مثـــل ذلـــك في سورة النحل (الآية:١١٥).

وفي هذا السياق اتفق علماء الأمة على أن الشريعة الإسلامية جاءت من أجل تحقيق المصالح وتكميلها وإزالة المفاسد وتقليلها، ومن ثم أوجدوا قواعد عريضة تدور حول هذه المعاني النسبية، مثل: «الضرورات تبيح المحظورات»، «المشقة تجلب التيسير»، «مصلحة الأبدان مقدمة على مصلحة الأديان».

وفي الطرف الآخر فإن عمل الفرائض من الواجبات المعلومة من الدين بالضرورة، لكنها تُخفف أو تسقط إذا انبنى عليها مفسدة، مثل الصوم، فقد يصل إلى درجة التحريم على بعض المرضى إذا أفتى الطبيب الشرعي أن الصوم سيؤدي إلى تلف بعض الأعضاء، بمعنى أن ما هو واجب على أغلب الناس قد يكون مباحاً لآخرين، وقد يكون حراماً على غيرهم، ولذلك لا يجوز للمرأة الحائض أو النفساء صيام رمضان، وأوجب كثير من العلماء على المرأة الحامل أو المرضع الإفطار، مراعاة لصحتها وصحة جنينها. ووضعوا قواعد في هذه الدائرة مثل «المشقة تجلب التيسير»، «إذا ضاق الأمر اتسع».

إن قانون النسبية الذي يدور مع المصالح وجوداً وعدماً، والذي ينـــتظم عقده وفلكه بالدوران حول المقاصد، يتغلغل حـــتى في الأحكـــام الثابتـــة بنصوص قطعية الثبوت والدلالة، فإن هذه الأحكام لا يجب تطبيقها إطلاقاً، ولكن عموماً فهناك ظروف تمنعها من التطبيق، مثل عدم وجود مناطاتها أي عدم وجود مكانها المناسب، أو إذا كانت ستؤدي إلى إنشاء مفسدة، فـــإن

«درأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة»، أو ستؤدي إلى إيجاد مفسدة أكبر، وهذا يتبين من خلال إتقان ما يسمى بفقه «مآلات الأحكام».

وانطلاقاً من هذه النسبية القائمة على الفقه العميق لمقاصد التشريع جاءت الاجتهادات الرائعة للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد امتنع عن إخراج سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة في الشطر الثاني من خلافته عندما أصبحت الأمة عزيزة ومهابة الجانب، بعد هزيمة المسلمين لإمبراطوريتي الروم والفرس، وكذلك توقيف أرض السواد في العراق وعدم توزيعها على المقاتلين، وكذلك تجميد حد السرقة في عام الرمادة.

وحول حرمان «المؤلفة قلوبهم» من الزكاة، يقول د. يوسف القرضاوي: «فإن عمر إنما حرم قوماً كانوا يتألفون على عهد الرسول ﷺ ورأى أنه لم يعد هناك حاجة لتأليفهم، وقد أعز الله الإسلام وأغنى عنهم. و لم يجاوز الفاروق الصواب فيما صنع فإن التأليف ليس وصفاً ثابتاً دائماً، ولا كل من كان مؤلفاً في عصر يظل مؤلفاً في غيره من العصور، وإن تحديد الحاجة للتأليف، وتحديد الأشخاص المؤلفين، أمر يرجع إلى أولي الأمر، وتقديرهم لما فيه خير الإسلام ومصلحة المسلمين[(١)].

وفي هذا السياق فإن فقهاء السلف الأُوَل كانوا يقدمون حقوق الناس على حقوق الله إذا تعارضتا، منطلقين من القاعدة التي استنبطوها من عموم النصوص القرآنية والمقاصد التشريعية وهي أن «حقوق الناس مبنية على المشاحة، وحقوق الله مبنية على المسامحة».

---

(١) فقه الزكاة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣) ٢/٦٠١.

وفي مجال العبادات نجد النسبية حاضرة من خلال التفاضل القائم بين حقوق الله وحقوق الناس، وكذلك بين العبادات اللازمة (الفردية والعبادات المتعدية(الاجتماعية). وقد أورد أحد الباحثين[1]! أمثلة لهذا الأمر نقلها عن شيخ الإسلام ابن تيمية وهي: جنس الجهاد أفضل من الحج، جنس الصدقة أفضل من الصيام، جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الذكر، جنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، جنس الصلاة أفضل من قراءة القرآن، جنس الحسنات أنفع من جنس السيئات.

إلا أن هذا التفاضل ليس ثابتاً، بل يتغير أحياناً ليصبح الفاضل مفضولاً والعكس، إما لظروف زمانية أو مكانية أو شخصية، فليس كل فاضل يكون فاضلاً دائماً، وليس كل مفضول يكون مفضولاً دائماً، كما أنه «ليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد. بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له»[2].

وتقتضي النسبية أن يفقه صاحبها ما يسمى بفقه الأولويات، وقد كتب حول هذا الفقه عدد من علماء المسلمين.

ومما يروى في هذا المضمار أن الرسول ﷺ كان يقدم المفضول على الأفضل في القيادات والإدارات إذا كان أنفع للمسلمين . يقول ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين»: «سئل الإمام أحمد عن رجلين أحدهما أنكى في

---

(١) هو: محمد الوكيلي، فقه الأولويات، ص٦٠.
(٢) ابن تيمية، الفتاوى، ٢٣/٥٨-٦١، نقلاً عن: محمد الوكيلي، فقه الأولويات، ص٦١.

العدو مع شربه الخمر، والآخر أدين . فقال: يُغزى مع الأنكى في العدو؛ لأنه أنفع للمسلمين . وبهذا مضت سنة رسول الله ﷺ فكان يولي الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه، كما ولى خالد بن الوليد من حين أسلم على حروبه لنكايته في العدو، وقَدَّمَه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار، مثل عبد الرحمن بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر، وهؤلاء ممن أنفق قبل الفتح وقاتل وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، وخالد ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل فإنه أسلم بعد صلح الحديبية»[١].

٧- النسبية لا تلغي (أفعل التفضيل):

عندما نؤكد أهمية النسبية وعدم التعميم كبعد من أبعاد التفكير الموضوعي، فإن هذا لا يعني إلغاء «أفعل» التفضيل بل تأكيدها، وكذلك الأمر في دائرة السيئات، مثلما أشرنا إلى ذلك عندما أوردنا مصطلحي «الدرجات» و«الدركات».

وقد أورد القرآن آيات عديدة في هذا السياق مثل قوله تعالى:

- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (البقرة:٩٦)، فكل الناس حريصون على الحياة لكن اليهود بعمومهم «أحرص»، وهذا لا يعني أن كل

---

(١) محمد الوكيلي، فقه الأولويات، ص١١٧.

يهودي أحرص على الحياة من أي شخص غير يهودي لكن اليهود بمجموعهم الأحرص على أي حياة مهما كانت!

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ (البقرة:٢١٧).

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء:١٤٥).

وفي الحديث الشريف وردت أفعال التفضيل والتسوي كثيراً، ومن هذه الأحاديث:

- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله سئل: « أيُّ الْعَمَلِ أفْضَلُ؟ فقَالَ: **إيمَانٌ باللّه ورَسُوله**، قيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّه**، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **حَجٌّ مَبْرُورٌ**»[1].

- عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللّه الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاة بَعْدَ الْفَرِيضَة صَلاةُ اللَّيْلِ»**[2].

- عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **ألا أُخْبِرُكُمْ بأَفْضَلَ منْ دَرَجَة الصَّلاة وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَة؟** قَالُوا: بَلَى، قَالَ: **إصْلاحُ ذَات الْبَيْنِ.. وَفَسَادُ ذَات الْبَيْنِ هِيَ الْحَالقَةُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصيام.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ؛ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[1].

- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ، رَضِي اللَّه عَنْه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: **أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**...»[2].

- عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: **أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**؟ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الديات.

الخاتمة

المعطيات والوقائع كلها تقول: إن الأرضية التي صنعت التخلف في بلدان المسلمين هي الفكر؛ ونتيجة المزاوجة بين الآفات الفكرية والعلل النفسية حادت مجاميع من المسلمين عن قيم الموضوعية والاعتدال والإنصاف.

ولكثافة المفردات وخطورة التداعيات الناتجة عن غياب أو ضعف الموضوعية في حياة المسلمين ربط (البعض) بين الإسلام وهذه الظاهرة.

غير أن المتدبر لنصوص القرآن وما صح من سنة المصطفى ﷺ، والمتتبع لسلوكيات المنتمين إلى قرون الخيرية الأولى، ولا سيما الصحابة الكرام، الذين أحسنوا تمثل قيم الإسلام وتجسيدها في واقعهم، سيدرك بوضوح أن هذا الدين يمتلك أرسخ وأمتن أسس الموضوعية والتفكير الموضوعي، وأن المشكلة لا تكمن في (الدين) بل في (تدين) غالب المسلمين اليوم.

وبحسب ما تبين لي فإن هناك ثمانية أسس تمثل روافع للتفكير الموضوعي في الإسلام، لو أعملناها سترتقي بنا في معارج الكمال البشري، وهي:

١- التمحور حول الأفكار لا الأشخاص:

إذ أن الإيمان أعمال وصفات لا أشخاص ومسميات، والرسالة فكرة لا شخص، والتكليف اتباع للأفكار لا للأشخاص، وحتى البراءة من غير المسلم تكون من أفكاره وأفعاله السيئة لا من شخصه.

٢- العدل والاعتدال في حالتي الحب والكره:

تضعف الموضوعية بقدر قوة العاطفة المنفلتة من رقابة العقل، ولذلك فإن الإسلام حث على مكافأة الجزاء للعمل، واحترام المعايير الموضوعية، وعلى العدل والإنصاف في التعاطي مع الآخرين، وحذر من بهت الخصوم، وأوجب الإشادة بإيجابياتهم، مع تأكيده لزوم ضبط عواطف الحب والكره، وسماها أهواءً؛ لأنها تهوي بأصحابها من علياء الإنصاف إلى دنيا التعصب.

٣- عدم احتكار الحقيقة، وإتقان آداب الاختلاف:

الحقيقة ذات أوجه متعددة لا يمكن لطاقات الإنسان الواحد أن تراها جميعاً، والنصوص حمّالة أوجه لا يمكن أن ينفرد بتفسيرها أحد، أو يدعي أنه يعرف مراد الله على وجه اليقين، ولهذا أسس القرآن لنسبية الحقيقة، وقد اختلف الصحابة في مدارس عدة، دون أن يدعي أحد امتلاكه للحقيقة، وقد ثبت أن احتكار الحقيقة يؤدي إلى تسفيه المسلمين لبعضهم، ومن ثم ينتقل التعدد في أوساطهم من أداة للتنوع والتكامل والتعاون إلى أداة للتناقض والتآكل والتباين.

٤- إتقان فقه الإعذار:

من يقرأ القرآن يلاحظ بوضوح كيف يحث على صناعة الأعذار، فالله تعالى يعذر عباده، ويشيد بخُلُقه الذين عذر بعضهم بعضاً من خلال إيراد نماذج لذلك في القرآن.

ومن تمام فقه الإعذار التثبت والتبيُّن والتمحيص قبل بناء النظريات واتخاذ المواقف والقرارات، وتغليب حسن الظن، والعمل الدؤوب لتجفيف منابع سوء الظن، التي تتفجر في البيئات والظروف غير الصحية، وعدم نسيان طبيعة تكوين الإنسان بما يقتضي ذلك من تذويب لسيئات المحسنين في بحار إحسانهم، وعدم السماح باجتياح السيئات لحسنات المسيئين.

٥- تشجيع الاعتراف بالجهل:

العلم نسبي، وما يجهله الإنسان - مهما أوتي من العلم - أضْعَاف ما يعرفه، ولهذا أسس القرآن للمنهج العلمي في التعاطي مع الظواهر والأشخاص، بما يتطلبه ذلك من اتباع لسبيل العلم، وتحريم الظن، وإعمال العقل، وسارت السنة النبوية في الدرب ذاته، حتى وصلت إلى حد جعل المتقوِّلين بدون علم كالقتلة؛ وأوجب الإخلاص في التعاطي مع العلم؛ لأنه يجعل من الطبيعي قول العالم: «لا أدري»، بحيث تكون أولى ثمار العالِم علمه بجهله، ولهذا أكثَرَ السلف الصالح من الصحابة والأئمة والعلماء من قول «لا أدري»، فهي ذروة العلم وقمة الإنصاف؛ لأن فيها تنازلاً عن الشخصانية السقيمة لصالح الفكرة السليمة، ولهذا ذهب كثير من الأعلام إلى أن من كثُرَ علمه قلَّ إنكاره.

٦- الإحساس بالمسؤولية الفردية ونقد الذات:

تتضخم الشخصانية بقدر تزكية الذات، فهي تؤدي إلى تورم هذه الذات على حساب الآخرين، لكن نصوص هذا الدين توجب صرف معظم طاقة النقد نحو الذات، وتحذر من منهج التبرير الإبليسي، وتجعل تفوق آدم وقبول توبته، وانتصار المسلمين في كثير من مراحل التاريخ، قائماً على نقد الذات وتحمل المسؤولية.

٧- احترام التخصصات والاستفادة من خبرات الآخرين:

أسس القرآن للتخصصات العلمية والعملية، وأوجب احترامها، وحث على المسابقة في العبودية الكونية من خلال هذه التخصصات، وقدَّر الخبرات، وأوجب الاستفادة من أصحابها مهما كانوا، وبهذا أوجد أساساً آخر للتفكير الموضوعي، وهذا ما جسده الرسول ﷺ وصحابته الكرام في حياتهم، فاستفادوا من خبرات الآخرين، مع احتفاظهم بتميزهم العقدي والثقافي.

٨- النسبية وعدم التعميم:

حرَّم الإسلام التسوية بين المتقابلين، وحرَّم التعميم، وأكد استحالة أن يمتلك أحد الحقيقة المطلقة، وحثَّ على مراعاة الفروق الفردية، وجعل جوهر الفقه لهذا الدين إدراك النسبية التي تبيح ارتكاب المفسدة الصغرى من أجل درء مفسدة كبرى، وتفويت المصلحة الصغرى من أجل تحصيل مصلحة كبرى.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يساعدنا جميعاً على ردم الفجوة بيننا وبين ديننا.

والحمد لله أولاً وآخراً.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه	٥
* المقدمة:	٣٩
* الأساس الأول: التمحور حول الأفكار لا الأشخاص	٤٣
* الأساس الثاني: العدل والاعتدال في حالتي الحب والكره	٥٧
* الأساس الثالث: عدم احتكار الحقيقة المطلقة.. وإتقان آداب الاختلاف ...	٧٥
* الأساس الرابع: إتقان فقه الإعذار	٨٧
* الأساس الخامس: تشجيع الاعتراف بالجهل	١٠٧
* الأساس السادس: الإحساس بالمسؤولية الفردية ونقد الذات	١٣٣
* الأساس السابع: احترام التخصصات والاستفادة من خبرات الآخرين	١٥٥
* الأساس الثامن: النسبية وعدم التعميم	١٨١
* الخاتمة:	٢٠٧
* الفهرس:	٢١١

وكـــلاء التـــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــر	دار الثقافـــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ –عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦- الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــع والترجمـــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً
* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.	

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي

الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح موضوعها لعام ٢٠١٠م

«الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة»

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٢م

• **مدخل:**

تعريف الفروض لغة وشرعاً؛ أبعاد القيام بالفروض المسقط للإثم عن الأمة؛ دور الفروض الكفائية في الاضطلاع بأعباء الاستخلاف الإنساني.

• **المحاور:**

* **كيفية إحياء فـروض الكفايـة:** أسباب غياب الفروض الكفائية في الحياة الإسلامية؛ الفـروض العينيـة والفـروض الكفائيـة؛ الفـروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة وتحقيق الشهود الحضاري؛ علاقة الفروض الكفائية بالنفرة لتوفير التخصصات المعرفية والعلمية.
* **الفروض الكفائية سـبيل الاكتفـاء الـذاتي:** الفهم الأعوج والتدين المنقوص أدى إلى التخلف والتراجع الحضاري؛ انكماش مفهوم الفروض الكفائية أدى إلى انتشار ذهنية الإرجاء والانسحاب من الحياة؛ عدم الاضطلاع بالفروض الكفائية أدى إلى فراغ استدعى (الآخر).
* **إحياء الفروض الكفائية سبيل إلى إحياء مؤسسات المجتمع:** تعريف المجتمع؛ الدولة؛ الأمة؛ المجتمع المدني؛ الفروض الكفائية تنمية للحس الاجتماعي واستشعار المسؤولية التضامنية؛ الفروض الكفائية وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية.
* **الأسس والأبعاد النفسية والفكرية للفروض الكفائية:** علاقة الفروض الكفائية بتنوع القدرات والقابليات الإنسانية وتقسيم العمل؛ أعباء الاستخلاف وإقامة العمران مرهونة بالجهد الجماعي المتنوع.
* **غياب فقه الأولويات:** القراءة الخاطئة لاستحقاقات الحياة ومقاصد الدين؛ تراجع الدين عن حركة الحياة عطل الفهوم الصحيحة للفروض الكفائية واستشعار الحاجة إليها؛ علاقة الفروض الكفائية بالرؤية والتخطيط الاستراتيجي للنهوض.

* **الرؤية المستقبلية لكيفية إحياء الفروض الكفائية:** تحويل الفروض الكفائية إلى محركات اجتماعية ومحرضات نفسية لأداء الرسالة والاضطلاع بالمسؤولية؛ الفروض الكفائية عندما تتحول إلى فروض عينية؛ التخصصات العلمية السبيل الوحيد للنهوض واستئناف الحياة الإسلامية؛ الفروض الكفائية وإعادة بناء أهل الحل والعقد، في ضوء القضايا المطروحة.

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨- تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار: هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠٠(+٩٧٤)–فاكس: ٤٤٤٧٠٠٢٢